محمد الفيتوري

أحلى قصائدي

قصائد مختارة

الكتاب: أحلى قصائدي (قصائد مختارة)

الكاتب: محمد الفيتوري

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الفيتوري، محمد
أحلى قصائدي (قصائد مختارة)/ محمد الفيتوري
الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١– الشعر العربى – تاريخ – العصر الحديث
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ١١٦ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠١٢٥

أحلى قصائدي

أحلى قصائد الفيتوري

بقلم : د. خالد غازي

من الصعب أن أقدم لشعر محمد الفيتوري، فشعره هو الذي قدمه لكل جمهور اللغة العربية ومحبي الشعر .. وهو الذي خطط له الريادة والتميز.

وأجد من الصعوبة أن أتحدث عنه لمعرفتي الشخصية به لأكثر من عشرين عاماً، فربما يتوهم القارئ أن هذا من باب المجاملة، لكني أعتقد أن قيمته الإنسانية والإبداعية أكبر من أي مجاملة، ثلاث مفردات هي الفيتوري الإنسان (المحبة – الحياة – الأصدقاء)، وثلاث مفردات شكلت الشاعر (أفريقيا – المخيلة – الإرادة) شاعر أفريقيا الأول الذي صدقت فيه نبوءة والده، الذي قال له يوماً: "إن نجمك سينتشر، ولست أدري ما ستكون في المستقبل أحاكماً أم رجل دين "أم شيئاً آخر"،

كذلك هو من يقول محمد الفيتوري عن مولده: "لو سألتني في أي أرض ولدت لكانت إجابتي أسهل، لأنني ممن يؤمنون بوحدة الأرض العربية، وهكذا تختلط في عيني الحدود الجغرافية، مادامت داخل هذه الأرض، وتتداخل التجمعات السكانية مثلما تتداخل الأزمنة والخصائص واللهجات"، فقد عاش هذا الشاعر المتفرد المدهش في تفرده متشرداً على أرصفة الوطن العربي، يقطف القهر من بساتين الحرمان، ويلوط أسفلت الطرقات الممتدة ما بين روحه المعجونة بالعذاب والآلام وشوقه إلى تراب الوطن، شاعر أفريقيا والوطن العربي محمد الفيتوري.

الفيتوري واحد من أكبر شعراء الرومانسية والتصوف في شعرنا المعاصر، عاش آلاماً ومحنا تخر لها الجبال، ورغم ذلك كان قوياً صلباً، حيث لم تثبط هذه الآلام من عزيمته، بل زادتها تحدياً وإصراراً، فوقف في مواجهة الحياة، هازئاً واثقاً من انتصاره، وكان له ما أراد إذ أصبح نجماً لامعاً في سماء الأدب والشعر، هو ذاك الشاعر الذي أضنته الغربة، وصنعت منه شاعراً معروفاً ذاع صيته من المحيط إلى الخليج الذي استطاع أن يقف شامخاً بجانب هامات شعرية وأدبية كبرى، استطاعت أن تحقق لهذه القارة حضوراً مدهشاً في عالم الإبداع والكتابة، مثل سنجور وول سوينكا ومواطنه الطيب صالح، وغير ذلك

الكثير من الشعراء ممن وضعوا أفريقيا على خريطة الأدب الإنساني، ووجهوا الأنظار إلى توهج هذه القارة الحزينة.

ولد الشاعر السوداني محمد مفتاح رجب الفيتوري في بلدة الجنينة "عاصمة دار مساليت"، الواقعة على حدود السودان الغربية في ١٩٣٠، وإن كانت زوجته السابقة السيدة آسيا قد أكدت أن مولده كان قبل ذلك بعام مخالفة بذلك ما أجمع عليه الباحثون، حيث لا يذكر شاعرنا تاريخ ميلاده تحديداً، أما المساليت فهي إحدى القبائل السودانية الكبيرة التي اشتهرت بالفروسية، أما والدته في الحاجة عزيزية على سعيد، من أسرة معروفة من قبيلة الجهمة العربية الحجازية التي هاجرت إلى صعيد مصر، ومن ثم إلى ليبيا، وكانت تشتهر بالتجارة والفروسية أيضاً.

عرفت أسرة الشاعر الهجرة أكثر من مرة، فوالده هاجر من ليبيا إلى غرب السودان قبيل الحرب العالمية الأولى، هرباً من وطأة الاستعمار الإيطالي، كما أن أسرة الأم قد هاجرت أيضاً إلى هناك، حيث استقرت الأسرتان، فتعرف والد الفيتوري بالوالدة وتزوجها، ومن غربي السودان هاجرت الأسرة الجديدة إلى مصر، فالإسكندرية حيث نشأ شاعرنا وترعرع.

وفي الإسكندرية التحق الفيتوري بمدرسة الأخلاق لتحفيظ القرآن الكريم، تأهباً لدخول الأزهر الشريف، وبالفعل حفظ القرآن، وعندما قامت الحرب العالمية الثانية كان شاعرنا في المدرسة الأولية في الإسكندرية، وقد عاش هو وأقرانه حالة من الرعب نتيجة الغارات الألمانية وقنابلها، وعندما اشتدت وطأة الحرب في العام ١٩٤٤، انتقلت الأسرة إلى ريف مصر في قرية "عرمش" التابعة لكفر الدوار بالدلتا، وهناك عشق الطبيعة بكل مظاهرها، وراقب الفلاحين وهم يعملون ويكدحون.

وعندما وضعت الحرب أوزارها عاد إلى الإسكندرية ليتابع دراسته في المعهد الابتدائي حتى العام ١٩٤٧، ثم التحق بالمعهد الديني التابع للأزهر هناك، حيث بدأت مسيرته الحقيقية لفهم اللغة العربية، والتعرف على مصادرها والفلسفة الإسلامية، وبعض العلوم الحديثة كالجغرافيا والحساب والرسم، وبعدها دخل المعهد الديني الثانوي في القاهرة ثم الأزهر الشريف حتى عام ١٩٣٥، ثم انتقل إلى كلية دار العلوم بالجامعة المصرية، حيث قضى سنتين ثم تركها دون أن ينال شهادتها منصرفاً إلى الصحافة، وأثناء دراسته في دار العلوم نشر أول ديوان له وهو "أغاني أفريقيا" في عام ١٩٥٥، فأقامت له الكلية حفلة تكريمية تشجيعية، ولم

تكن قصيدة "أغاني أفريقيا" هي أول ما سطر قلم الفيتوري، بل كانت بدايته مع كتابة الشعر في الإسكندرية، وكانت قصيدة "خطوط".

يقول الفيتوري عن هذه النشأة: ولدت في أقصى الغرب في السودان في مدينة اسمها الجنينة، الجزء الأكبر منها يقع داخل حدود السودان، والجزء الآخر يقع داخل تشاد، وأسرتي بسيطة جداً تتكون من أب وأم وشقيقة، والوالد هو شيخ صوفي كبير، الشيخ مفتاح رجب الشيخي الفيتوري خليفة من خلفاء الطريقة العروسية الشاذلية الأسمرية، أو كما يسمونها "شيخ السجادة الصوفية"، والوالدة السيدة فاضلة. وفي جذور القبيلة تتداخل دماء كثيرة لقبائل بعضها ليبي والآخر مصري والثالث أفريقي.

ويضيف: هذه المركبات المتداخلة فيها امتدادي في أجساد وأرواح الآخرين، ومنذ دب الوعي في وجداني، وبدأت أدرك معنى بعض الكلمات التي كان يرددها والدي ليلاً مع بعض زواره من أدعية وترانيم دينية، وتعلقت بما أسمع وبدأت أفكر تفكيراً عميقاً، لدرجة أنني تركت رفاقي في اللعب، وأنا طفل لأنضم إلى رفاق أبي في فناء البيت مستمعاً ومستمتعاً بآيات الذكر الحكيم والتواشيح الصوفية والأوراد والقصص.

هكذا بدأت علاقة الفيتوري بالعمل مبكراً، حيث ترك الجامعة وفضل العمل كمحرر أدبي، حيث مارس أثناء إقامته في القاهرة العمل الصحفي، وكتب الكثير من الدراسات الأدبية والسياسية والمقابلات في صحيفة الجمهورية، وبعد انتقاله إلى السودان في عام ١٩٥٨، تولى هناك رئاسة تحرير أكثر من مجلة وجريدة ومن أبرزها مجلة "الإذاعة والتليفزيون"، وعمل أيضاً في لبنان محرراً أدبياً في مجلة "الأسبوع الأدبي"، ومحرراً في جريدة "بيروت"، وشارك في إصدار مجلة "الديار"، كما أسند له مهام رئيس تحرير مجلة "الثقافة الليبية".

وشغل محمد الفيتوري أيضاً وظيفة خبير إعلامي في جامعة الدول العربية في القاهرة في الفترة ما بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٠، إلا أنه ترك وظيفته وذهب إلى بيروت، ليعمل في الصحافة، ولكنه أبعد من لبنان لأسباب سياسية، حيث تعرض في عام ١٩٧٤ لأزمة سياسية عنيفة، عندما قررت الحكومة السودانية سحب الجنسية السودانية منه، وبالتالي جواز السفر، ومن ثم كان عليه أن يبحث لنفسه عن وطن غير وطنه الذي أحبه وتفانى في حبه، فوجد ليبيا فاتحة ذراعيها له، فسافر إليها وتم استخراج جواز سفر له، وبعدها عمل مستشاراً ثقافياً في السفارة الليبية بإيطاليا، ثم شغل منصب مستشار وسفيرا للجماهيرية الليبية في

بيروت، ثم مستشارا سياسيا وإعلاميا بسفارة ليبيا بالمغرب، وكان لإبعاده ضجة كبيرة في الأوساط الفكرية التي استنكرت هذا الترحيل، وسمح له بالعودة إلى لبنان في عام ١٩٧٥.

هكذا، وبرغم ما تثيره رؤى شاعرنا العربي والأفريقي محمد الفيتوري حول الشعر العربي من إشكاليات حول الشعر العربي والشاعر العربي وعلاقته بالسلطة ومدى التزامه، فإن ملمحه الشعري يظل حاضراً كومضة مدهشة في فضاء القصيدة العربية، وحديقتها الواسعة، فهو بحق أحد أصوات الشعر العربي العبقرية التي لا يكون من دونها شعر، يقول عن حاضر هذا الشعر الحديث: الشعر لن ينتهي، لا الشعر العربي ولا الشعر العالمي، بالعكس، إذا كان عندنا أمة في حالة خمول وحالة إحباط وحالة انهيار وتراكم أزمات فإن انعكاس هذه الأزمات على روح الإنسان، ثائراً أو كاتباً أو أديباً أو شاعراً أو فناناً، فهذا الانعكاس هو انعكاس الأمة على الإنسان في لحظة من لحظات هبوط معنوياتها، وهبوط قيمتها الاجتماعية وحضورها في التاريخ.

ويضيف: لا يعني هذا أبداً ذبول الحركة الشعرية في الكون العربي، بالعكس، فليس بالضرورة أن يكون في كل مرحلة من الشعر العربي شعراء كبار، في الجاهلية كان هناك شعراء معدودون علقت قصائدهم

على أستار الكعبة، بينما كان هناك شعراء آخرون، واستمرت حركة المجتمع العربي من الأمويين إلى العباسيين إلى العصور المتتالية، وسجلت مراحل أخرى في الشعر في تاريخنا العربي الإسلامي، استمرت الموجات متتالية يأتي شعراء ويذهبون ودائماً يبقى هناك شاعر أو أكثر.

ويعلن الفيتوري عن تصوري في هذا الأمر قائلاً: الشعراء اليوم كثر وموجودون في كل مكان، هناك شعراء نبطيون وشعراء فصحى وشعراء شعبيون، وشعراء البيت الواحد، شعراء التفعيلة، وشعراء المنثورة، وبالتالي فلا مجال للقول بموت الشعر العربي أو حتى ضعفه، مشيراً إلى أنه لا يستطيع القول بأن الأمة في حالة استقرار روحي وعاطفي واجتماعي، بل الحاصل أن الأمة تعاني من الاهتزاز ومن ثم تهذي، تثرثر، تصرخ، لا تعرف ماذا تفعل، هي أمة مصدومة بما حدث حولها من نكبات، وهزائم من سقوط أمام العدوان الإسرائيلي والاحتلال الأوروبي، فهي أمة فقدت توازنها، فقدت قيمها، فقدت قواها، فقدت رؤياها، فقدت مستقبلها، لأن الهزائم حفرت في روحها، وفي روحنا شعراؤها.

وعن رؤيته للتغيير والنهوض، يرى أنه هذه الغمة قد لا تنتهي خلال سنوات قليلة، لكن لا بد أن تنتهي، لأننا أمة ذات تاريخ وحضارة وقيم

وقد أهدت للعالم أفضل ما عنده من ديانات وقيم وفضائل وحضارة، ومن ثم فالأمة الإسلامية والعربية لن تنتهي، لن تنقرض، لن تموت، لن تضمحل إلى الأبد، لكنها الآن في حالة انهيار، مؤكداً أن هذا العصر أشبه بمراحل الانحطاط المملوكي، أو العصور الوسطى، وأن الغد بلا شك أفضل من اليوم، هذا الغد قد لا تراه عين الآن، لكنه آن حتماً.

الفيتوري ليس شاعراً يسطر الكلمات فتبدو أغنية جميلة، بل هو فيلسوف وسياسي محترف يكتب شعراً يبدو كقصائد المصوفين أمثال ابن عربي وابن الفارض وأبي العلاء المعري، تراه يكتب عن الموت فيبهر قارءه، حيث يقول عنه في القصيدة التي كتبها ليرثي بها الشاعر المصري صالح الشرنوبي:

نـم عميقـاً فـالموت حلـم طويـل
همجـي الـرؤى كحلـم الحيـاة
والألـي أنكـروك يومـاً سـيأتونك
يومـاً فـي خـشعة والتفـات

وسيحكي التاريخ للغد، للأجيال، تلك المجهولة الصفحات
قصة الشاعر العظيم، العظيم الحلم واليقظة، العظيم الصفات

ثم يكتب بعد ذلك بسنوات قصيدة في ذكرى رحيل أمير الشعراء أحمد شوقي، فيقول عن الموت:

يبقى لنا خالداً في شعرك الذهب
المنقوش في شرفات الشمس والنغمُ
يبقى لنا نهرك الفضي منسكباً
حيث الرعاة الرماديون والعدمُ
يبقى لنا صوتك العالي وقد هرعت
إليك تستبق القامات والقممُ
تبقى لنا تلكم الأبيات سابحة
بين المجرات لا موت ولا هرمُ
تبقى لنا مصر في عينيك لؤلؤة
مكنونة حارساها النيل والهرمُ
يبقى لنا منك ما لا تستطيع يد
ترقى إليه، وما لا يستطيع فمُ

الصراحة والصدق مع النفس سمة تميز بها الفيتوري، فإنه عندما أخذ عليه النقاد اقتصاره في شعره في بداية عهد بالشعر على أفريقياً، فاجأ الجميع، معترفاً أنه كان ساذجاً عندما توقف أمام حاجز اللون وترك حواجز أكثر فداحة من حاجز اللون.

وأكد الفيتوري في أكثر من مقال أنه لم يتوقف عند حاجز اللون إلا عندما أراد أن يدلل على التفرقة بين إنسان وآخر، وبذلك كان يمكن أن يرد على منتقديه بسبب هذه الزنوجة الصارخة، بأنه هناك كذلك قصائد في هذا الديوان مثل قصيدة "تحت المطر" تخاطب الإنسانية كلها.

يقول الناقد د.محمود الربيعي ، عن محمد الفيتوري: "كان بمثابة بركان النار وقارورة الغضب واللهب التي تضيء سناء القاهرة وأرضها في منتصف الخمسينيات، وأنه كان يمثل تلك الظاهرة الشعرية الغريبة، فهو نسيج وحده وظاهرة فريدة، متغلغل بحميمية في النفس والخيال والوجدان، وقد تقدم إلى عالم الشعر متوحشاً يحمل آلامه في كبرياء، وهو مع هذا التوحش مطالب بأن يقيم اتصالاً بشرياً، لأنه يعرف جيداً أنه بدون هذا التواصل لن يكون متحققاً شعرياً بشكل متفرد.

ويضيف: كان صوته ضارعاً رغم هذا الشموخ الشعري، ولكن هذا الكبرياء إذا جاء صوت الاتصال والتواصل البشري رأينا حنينه البشري يمد صوته للتوحد مع البشر في أنحاء العالم كافة، فهو صاحب قضية ليست محدودة وشعره يعطيك هذا الإحساس بأنك تعيش بين الحلم والحقيقة، وقد صارع الواقع حتى حوله إلى شعر، وصارع الشعر حتى

حوله إلى واقع، وبذلك تحقق في شعره، وسوف يبقى شعره برغم مرور السنوات، ولن يستطيع الواقع إنهاءه أو صدعه، فمحمد الفيتوري إذن يغزل غزلاً رقيقاً يتبادل فيه المرسل مع المراسل إليه مع الرسالة في حبكة فنية، فهو يبدأ من الحيرة، لينتهي إلى اليقين ويحقق التآلف بين المتناقضات، وهذا هو الشعر الذي يبقى بعد أن يرحل قائله، لذلك كله سوف يبقى، ومن ثم فلوحات الفيتوري الشعرية ستبقى كما بقي شعر المتنبي إلى الآن، سيبقى شعر الفيتوري ما بقي هناك من يقرأ العربية.

ويضيف الربيعي: إننا لا نستطيع الوصول إلى الرسالة السياسية عند الفيتوري إلا من خلال الرسالة الشعرية، فهي تتخلل التربة السياسية والاجتماعية كما يتخلل الماء تربة المنجم، وهذا يعني أن هدفنا الأول من شعره هو القصيدة الجميلة، وليس القضايا التي تحتويها، فالفيتوري لا يتجاهل الواقع فهو عاشق أفريقيا السمراء في كبرياء، وهو لا يبقى عند واقعه إلا بمقدار ما يضع هذا الواقع في مدار الشعر، فالموهبة الفيتورية العشرية تسبح في مجالها الخاص، فهو بحق، ابن الطبيعة البكر، جاهد حتى نجح في الاندماج في الطبيعة الأم، وقد تمنى أن

يكون فراشة نحل، وتمنى أن يكون طائر شعر، وإنه لكذلك فهو بمثابة قارورة العطر التي تضوعت في الوطن العربي الأفريقي.

في حين، يصفه الناقد د.محمد فتوح أحمد، بأنه شاعر ذو قضية، حيث كان الفيتوري وما زال عبر مجموعاته الشعرية مهموماً بطرح الأسئلة وأن همه وسؤاله الأول كان أفريقيا ثم أصبح عالميا، وكان شاعراً مؤرقاً في حين كان غيره يتلكأ في سراديب شعر بلا قضية، موضحاً أن المكونات الأولى في شعر الفيتوري كانت تلك الإثنية العجائية الغرائبية الأسطورية التي اكتنفت الفيتوري منذ النشأة فهو ذو جذور مصرية سودانية ليبية وهذه النشأة صدر عنها ديوانه الأول "أغاني أفريقيا" عام ١٩٥٥.

ويقول فتوح عنه: كان الفيتوري اللون الصارخ في خريطة الشعر العربي، لأنه حمل طابع الزنوجية والصراخ من أجل أفريقيا، والتي رأيناها في قصيدته "أغان أفريقية" وفي قصيدته "أنا زنجي"، وهذه النبرة كانت جديدة هزت أساطين النقد والشعر، فكتب عنه العقاد وكامل الشناوي ومحمود أمين العالم، وكلهم بشروا بشاعر متمكن وجديد، ولكن أخذ بعض النقاد على هذا الديوان وعلى الفيتوري أنه يقصر شعره على أفريقيا، وقالوا ماذا سيقول الفيتوري بعد أن تتحرر أفريقيا.

لقد شغل الفيتوري كثيراً من الباحثين في رسائل الماجستير والدكتوراه، فرأوا أنه استطاع توظيف الأسطورة المستمدة من الواقع العربي في شعره، ولم يقع فيما وقع فيه السياب وغيره من الإتيان بالأساطير الغربية، فالأسطورة عند الفيتوري مجدولة من الواقع العربي ولا يخرج عن تلك المنطقة، لأنه يعبر في شعره عن ذاته، حيث استطاع بصوته الرائع أن يلتفت بقوة إلى التفاوت الطبقي البين في المجتمع، فبدأ يعبر بقلمه عن الحزن والأسي والغربة، وكان ذلك مقدمة الشعر عنده.

كما رأوا أن شعور الفيتوري بقهر الواقع جعل بعض قصائده تخرج حادة، فالبنية الدرامية في شعره تكشف عن وعي عميق بالأسس الحديثة للأشكال الدرامية المختلفة من مسرح وسينما ورواية وقصة، كما أن الموسيقى توجد بتميز وقوة في شعره، ولذلك يعد الفيتوري أحد الكهنة الكبار في عالم الشعر الآن، فقد وقع الشاعر على قصص البطولات الشعبية العربية فاستطاع أن يشبع احتياجاته الروحية في بداياته.

لقد قرأ الفيتوري سيرة الكبار أمثال عنترة العبسي وأبي زيد الهلالي وحمزة البهلوان، وذات الهمة وفيروز شاه وسيف بن ذي يزن

وألف ليلة وليلة، ثم اتسعت دائرة مطالعاته، وتنقل بين شيرلوك وهولمز وطرزان وأرسين لوبين، وتجاوز في قراءة الشعر المعلقات العربية فقرأ لشعراء الصعاليك وشعراء صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي، وإن كان أعجبه من هؤلاء الشريف الرضي وتلميذه النابغة مهيار، والمعري والمتنبي وابن الرومي وأبو تمام ورفض البحتري وأبا العتاهية وأبا نواس.

هذا.. وقد بدأ الفيتوري يكتب الشعر وهو لا يزال طالباً بدار العلوم فكان رائعاً في كتاباته التي توالت وتعددت، واستطاع أن ينال بها مكانة مرموقة، ليس عند العرب وحدهم وإنما عند غيرهم أيضاً، فقد ترجم شعره إلى العديد من اللغات الأجنبية منها الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية، وحظي بتقدير المهتمين بالإبداع هناك، فقد كان شعره هو النموذج الذي استطاع أن يلفت الألمان إلى قيمة الأدب العربي الحديث، كما أن التجربة الصوفية لعبت دوراً ملموساً في شعره كونها جاءت ذات طباع خاص، يعود إلى النشأة الأولى فوالده كان من كبار رجال الطرق الصوفية في السودان، وكانت منذ الطفولة المبكرة ترتعد في آذانه أصوات وطبول ودفوف، وترتعش أمام عينيه أجساد ترقص رقصات متوفزة.

في حين، أكد الشاعر فاروق شوشة، أن شعر الفيتوري توهج بالهم العربي كما توهج بالهم الأفريقي، وقد كان قامة شعرية كبيرة في بيروت بجانب الأخطل الصغير، وسعيد عقل وغيرهما، كما اهتم بالهم العالمي ككل في مرحلته الشعرية الثالثة عندما استشرف الكون كله، وبدا وكأنه يدع مثل أقرانه الحلم العربي في الخمسينيات والستينيات، وفي هذه الفترة ظهر ديوانه "شرق الشمس غرب القمر" وديوانه "أغصان الليل" وغيرهما.

أما صديقه ورفيق دربه الكاتب صبري العسكري فقال عنه: أنقذ شعر الفيتوري صاحبه من حادث الاختطاف الذي تعرض له في بيروت، بل أنقذه من الاغتيال على يد خاطفيه إبان الحرب الأهلية اللبنانية، فعندما قرأ عليهم أشعاره بصوت جهير، وكان بعضهم يعرف قيمته الشعرية أفرجوا عنه، فالفيتوري انتقد حكام السودان عندما قاموا بسحل رئيس الحزب الشيوعي السوداني بمنتهى البشاعة، وكان ما زال هؤلاء الحكام القتلة في السلطة.

ويضيف: الفيتوري شاعر مناضل لا يخلص إلا للشعر، فقد هجر منصبه الإعلامي في جامعة الدول العربية ذاهباً إلى بيروت بدون أي استئذان، وعندما ضاقت به السودان ذهب إلى ليبيا ليتركها إلى بيروت

ثم إلى مصر ثم إلى المغرب، فهذا الشاعر طائر مغرد وراء الحرية أينما تكون.

هذه المختارات..

تحية حب حقيقية لشاعر أحببناه.. ولقيمة نعتز بها وفخر للغتنا العربية.

سقوط دبشليم

"وإنك أيها الملك السعيد جده..

الطالع كوكب سعده، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم، ومنازلهم التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خولت من الملك، وورثت من الأموال والجنود. فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت، وبغيت، وعتوت، وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية..".

بيدبا الحكيم

(من كليلة ودمن)

صلاة قبل الأفول

الريح في شوراع المدينة المائلة للشرفات

تدحرج الطبول

والقمر القديم شاحب الرؤى

يحلم بالأفول
يا ريح ما الذي أقول
لو أن ذاك القمر القديم مات
ما الذي أقول؟

إيقاعات قديمة

ومعانق الأجداث رغم تفسخ الأجداث أعمى
يمشي إلى أقداره، ويموت قبل الموت هما
والضعف إنسان يرى في الماء صورته فيظما
وأحق هذا الخلق إشفاقاً به..
وأشد وهما
من ليس يعرف أنه مغمى عليه
وهو مغمى

الافتتاحية

وقال بيدبا:
– اللصوص اقتحموا حواجز الميناء
وحطموا سارية السفينة
وسرقوا كنوزها الثمينة

ولم يزل قبطانها يضرب في أزقة المدينة
يبحث عن منظاره القديم
تلك هي الرواية التي
أرى فصولها يا دبشليم
لا بأس فلنبك قليلاً ربما طهرنا البكاء
نحن الذين اختنقت على شفاهنا إرادة الآلم
نحن الذي لم تزل ترف فوقنا بيارق الندم
لا بأس أن نطاطئ الرؤوس بعض الوقت
وأن نلوذ ساعة بالصمت
فالنصر قد يكون في الهزيمة
والعدل في الجريمة

الرؤيا

وغامت الآفاق فجأة، وأظلم النهار
وأسقطت أوراقها الأشجار
ورقصت هياكل الأسماك في البحار
والتقت الوجوه بالوجوه
والأقدار بالأقدار
وأنكر ابنه أبوه.. ثم سار

مولولا.. ثم تيقظت..

فقال بيدبا لدبشليم:

– المرء دائماً وما يختار

داخل السرير الملكي

– أخائف أنت؟

وهب دبشليم غضباً

وقال بيدبا:

– تنام يا مولاي مهموماً، وتصحو متعباً

واعجبا

تلبس تاجا من ذهب

وجبة من الحرير والقصب

وحولك الحجات والحراس بالآلاف

ثم تخاف

أهذه خاتمة المطاف

الذين يجيئون

– هم يشبهون السيل

قال بيدبا الحكيم:

وكان وجه الملك الجليل دبشليم

ياقوتة ترتجف في خاتمه القديم

– ودائماً كالعرق الذي على جباههم

يبتسمون

ويركضون

وإذ يشاءون يشاءون ويقدرون

ودائما ينسون الملوك

دائما يهوي الصدا على الصدا

ودئما يجيء سيلهم..

لأنهم لا يقفون أبدا

حوار

تقول لي يا دبشليم

وابتسامة الغضب

تنصب ما بيني وما بينك

جسرا من لهب

– أطبق فمك

حكمة هذا العصر أن طبق عينيك

طويلا وفمك

يا دبشليم الحق صت الله
وكلمة الحق هي الحياة
فلا تضق ذرعا
إذا تحركت بها الشفاه

المعركة

أرضك ظمأى..
والخريف شح هذا العام
والمتسولون يزحفون، والأقزام
يعربدون في حطام المملكة
يا ملكا متوجا على حطام
يا قائدا بغير معركة هذا آوان المعركة

وصية الشاعر القديم

لولا حيائي منك، لولا خشيتي
لقلت لك:
السم في كأسك، والخنجر في العباءة
يا أيها الجالس خلف الحجرة المضاءة
على جلالك السلام

وأومأ الأمير للسياف: يا غلام
أطح برأسه..
وضاع الصوت في الزحام
واعجبا يا سيدي
كأنما أغوص في حلم من الأحلام
فإنني كنت نصحت منذ ألف عام متوجاً مثلك
– ما أعدله وأعدلك –
لكنه ازدري نصيحتى
ازدراني..
وبقيت..
بينما هلك..

العميان والجريمة

وقال بيدبا:
– المهرجون يضحكون والجثة فوق المنشقة
كراية قديمة معلقة
والشمس يكسوها المشيب في السما
يا دبشليم ربما
نفتح العيون مبصرين بينما

قد شعبت أغوارها عمى!

السقوط

وقال بيدبا:
– سألتني عن السقوط مرة
فإن تكن ما زلت مصغيا إلى
أيها الملك
ها أنذا أقول لك
– يسقط بعضهم
أنه يرى ولا يرى
ويسقط البعض..
لأنه يسير القهقري
وشر أنواع السقوط مرضا
هو السقوط في الرضا

إيقاعات حديثة

أسامعي يا دبشليم؟
الفجر مثقوب الوشاح وابتسامة الشفق
مصفرة.. ونحن والغيوم شاهدان

تحت قبة الأفق

أسامعي؟

أكاد أن أشم نفس الرائحة

أكاد أن ألمس باليدين وجه البارحة

المخاض

في الأرض ثورة، وفي السماء

ثورة يا دبشليم

الأرض تطحن النجوم

والريح تمضغ الغيوم

فكيف تستعذب نوم العين

وأنت بين بين !

كتابة منسية

أعلم أن الموت حق، والحياة باطلة

والمرء لا يعيش مهما عاش إلا ليموت

وكل صرخة مصب نهرها السكوت

وأروع النجوم هاتيك التي

تضيء درب القافلة

حين يغطي العشب ذكرياتنا؛
وتشهق المأساة في البيوت

السؤال والإجابة

بأي سيف أقهر الطغيان؟
قال بيدبا:
– بسيف الضعفاء كلهم
– بأي نار أحرق الأكفان؟
قال بيدبا:
– بنار فقرهم.. وذلهم
– بأي شيء أصنع الإنسان؟
قال بيدبا:
– تصنعه إذا سقطت واقفاً من أجلهم.

قاع المدينة

وقال دبشليم يا حكيم:
– حدثني عن ماء يلوح راكضاً وهو أسن
وعن شعاع في منازل النجوم يحتقن
فغاب بيدبا هنيهة.. وقال:

– إنما هم الرجال حين يأسنون

يأسن حتى النور

والحب والسرور

وقال بيدبا:

– وقوة الحياة أنها ترفض

إلا أن تكون

أغنية في قلب فنان

وأطفال سيكبرون

أصواتهم

في مجدك العالي الذي ساقته

دنياك إليك

أصل لحظة، فقد أتوا يطلون

عليك

– ها أنتذا تسقط بين العقل

والجنون

كمثلهم سخرت من عذابنا

كمثلهم غدوت صخرة ونحن سائرون

كمثلهم نسيت يا مليكنا

أنك ميت ونحن خالدون
في مجدك العالي الذي تملأ وجهه
الغصون
أتوا يغنون بلا شوق ويرقصون

حفار القبور

وعض حفار القبور شفتيه
حسرة وضجرا
وهو يقلب العيون في تجاويف الثرى
– ويوم أن أموت
من ترى يشم جسدي
ومن يكون شاهدي
غدا.. إذا ما الناس ماتوا
والغراب مات
وآضيعتي من أجلهم
أنا الشقي آخر الأحياء والأموات

الدرويش

وبصق الدرويش في جبته وقال:

– وحين أغلقنا عليه خشب التابوت

كان يقول الله ربي

الله حي لا يموت

كان يحب الله.. كان يتقيه

في نفسه.. وفي ذويه

وكان يخشاه.. ويستحييه

مولاي..

لو أنك أبصرت جلال الله

لسارت الجبال من خلفك والمياه

البومة والطاووس

وقالت البومة للطاووس:

– لولا صوتي الكريهة الدميمة

ما كانت تمشي الخيلاء معجباً

بريشك الجميل

فابتسم الطاووس ضاحكا وقال:

– صدقت يا سيدتي الحكيمة

فكبرياء الكبر تعني قمة الذلة في الذليل

وكثرة الكثير، قلة القليل

حجر في الطريق

قهقهة يا دبشليم؟ أم عويل
امرأة تعانق ابنها القتيل
تلمس عينيه طويلاً وفمه
تشم شعره.. تهز معصمه
ثم تصيح معتمة
– يا ولدي قل كلمة
ويضمحل وجهها
عبر توهج الذهول
ويتلوى شجر النخيل
محتضرا..
وتغرق ابتسامة الأصيل
في عمق نهر النيل

خلود!

لا الحزن يجديك، ولا الحلم، ولا التمني
لا رقصة المهرج الأعمى
ولا تهافت المغنى
أقفرت الحياة في جنبيك

واستغلقت الأشياء

فابق طويلاً مثلما تشاء

لو كان يحلو في سرير ميت طول البقاء

الإنسان والحقيقية

اكتب عن عصرك كيف انطفأت..

روعته وكيف

تعرج ساقاه، وتهرمان

كل لحظة تحت ثلوج الزيف

اكتب عن عصرك..

قال بيدبا، والسيف يبكي في عناق السيف

– وباطل عصرك، ناره سجينة

وشمسه غريقة

والشعر وحده هو الإنسان والحقيقة

الديناصور!

اكتب عن عصرك..

عصر الغضب الميت، عصر الضحك المتهور

عصرك يا مولاي

حيث تركض الخيول في القماقم
وتسكن الغربان في العمائم
حيث يهب فجأة من ظلمة العصور
الديناصور

آخر المهزلة

أكتب عن عصرك
ابني لك في شعري قبراً من ذهب
ترقد يا مولاي من أفراحه في مهرجان
تصبح فرعون الذي كان وكان..
ومثلما جاء ذهب
إلا بقايا حنطة
ومومياء ملك
وظل صولجان!

الغثيان

تبا لعصر تمطر السماء فيه
– قال بيدبا لدبشليم –
جرذانا وأغربة

وتلد الرجال فيه
ويعانون من المحيض
ويلتقي النقيض بالنقيض
وتستمد القبب المذهبة
طلاءها اللماع
من أعين الجياع

أشباح مجهولة

أغلقت الحانة أبوابها
واحدودب الساقي، ومات النديم
فاجتر أحزانك يا دبشليم
قطتنا السوداء قد أسقطت
أبناءها أمس
وكلب الحكيم
ظل طوال الليل مستيقظا
ينبح شيئاً غامضاً في النجوم

المشهد الأخير

ليل مداري، وظل قمر ينهار

والملك الغارق في الرموز والأسرار
منطرح على سرير ملكه، والدم والنضار
يخضبان ردهات القصر، والثوار
ذوو الشعور البيض يركضون فوق السور
وفجأة يا دبشليم يسقط الستار
ويبصق الجمهور

اعتذار

وقال بيدبا لدبشليم:
– يا مولاي معذرة
لكل ما تحجبه الستائر المعطرة
وكل من يحمل بين راحتيه مبخرة
معذرة.. وألف ألف معذرة
للنص الأنيق فوق المقبرة
فالموت كان الفجر
والطريق كانت مقفرة!

رسالة إلى الخرطوم

في الأرض حيران ضائع
دام كثير المواجع
أرنو إليك.. وأعدو
كالطفل في كل شارع
وأرتمي فوق حزني
وفوق شوك المضاجع
وبيننا يا بلادي..
سارة من مدامع
وصورة يا بلادي..
قد لونتها المفاجع
وحائط يا بلادي..
من فوهات المدافع
دمع وأفق ونار

والموت عريان جائع

والشعب أعزل..

شعبي هذا الجريح المصارع

رأيته وهو صدر عار

يسد الشوارع

يمشي.. وتمشي الضحايا

أمامه والطلائع

عمائم ووجوه

كأنها الفجر ساطع

وأذرع كالصواري

كمئذنات الجوامع

تلتف حول المصانع

تمتد حول المزارع

تصون عزة شعب

طالت عليه الفجائع

بالأمس.. أمس وقلبي

بردان خالف الأضالع

رأيت شعبي يغني

للشمس أحلى المقاطع

والشمس في غسق الليل

في رؤوس الأصابع

رأيتكم يا حبيبي

رغم الفيافي الشواسع

سمعتكم يا حبيبي

ولم أزل بعد سامع

قالوا انتفضت..

ومزقت عنك سود البراقع

قالوا تفجرت أفقا

من السيوف القواطع

قالوا وطهرت نعليك

من جلود الضفادع

قالوا ومازلت تبني

العلا: وتبني الروائع

قالوا.. وتوجت رأسي

زهوا بما أنت صانع

وقلت ما كان شعبي

للبطش يوما براكع

ولم يكن مجد شعبي

لمشتر أو لبائع
فالشعب كالأفق
في صدره تنام الزوابع
والشعب كالنيل..
في عمقه انفعال المنابع
راح الطغاة المساكين
وانتهوا في المخادع
والشعب ما زال
يمشي ويسترد المواقع

القاهرة ٢٤/١٠/١٩٦٤

حصاد شعب

زحفت مواكبنا.. فقل لصحائف المجد استعدي
هذا الذي غرسته كف الشعب، في اليوم الأشد
هذا حصاد القادرين، على الإرادة والتحدي
ولقد قدرنا، رغم بطش الأجنبي، المستبد
ولقد هدمنا، كل ما في الأمس من سجن وقيد
ولقد هزمنا، كل ما في الأرض، من ضعف وحقد
ولقد عقدنا في طريق نضالنا إكليل ورد
يا شعبنا.. وخطاك إعصار
وصوتك صوت رعد
وبيارق الشهداء فوق ثراك من جد لجد
والشمس حانية عليك، تطل في تيه ووجد
ترنو إليك.. وأنت ثورة ثائرين لخير قصد
لحياة شعب.. وانتفاضة أمة.. وبناء مجد

ولتصبح الحرية الكبرى..

طريقك دون حد

يا ملهم الشعراء، أروع شعرهم يوم التحدي

ماذا أقدمه إليك؟

وأنت كل الشعر عندي

الخرطوم ١٩٦٥

غابة موت

نيويورك .. ملء عروقي كآبة
وعيناي فوق ثراك سحابة
ولست بلادي
ولا قلبك المتحجر قلبي
ولا أنت في وهج الشعر دربي
فأفريقيا موطني والزنوج المساكين شعبي
الزنوج الذين أقاموا هياكلهم أمس جسرا
تمر عليه إليك الحضارة
والذين يضيعون في طرقاتك رعبا وقهرا
وتضحك أفواههم في مرارة
والذين لدي كل ضربة معول
وفي كل رعشة منجل
وملء مناجمك المعتمات

وملء شوارعك المتخمات

وملء ترابك.. ملء قبابك

ملء كنائسك العاليات

سينسون إنك سوط، وإنك قاتل

وإنك حسناء مغلولة بالسلاسل

ولكنهم يا نيويورك مهما نسوك

ومهما تناءوا، وراحوا يشيحون عنك

ستركض أرواحهم من بعيد إليك

لتدفن أوجهها في يديك

وتحنو عليك

وتجهش مخنوقة بالبكاء

لأنك أم، وإن كنت قاتلة الأنبياء

نيويورك يا غابة الموت.. ملعونة كيف كنت

فهذا الذي لطخته يداك، جبينك أنت

الحصاد الأفريقي

أصبح الصبح فلا السجن، ولا السجان باق
وإذا الفجر جناحان يرفان عليك
وإذا الماضي الذي كحل هاتيك المآقي
والذي شد على الدرب وثاقاً لوثاق
والذي ذوب ألحان الأسى في شفتيك
والذي غطى على تاريخنا في كل وادي

فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي
أصبح الصبح.. وها نحن على البعد التقينا
التقى جيل البطولات.. بجيل التضحيات
التقى كل شهيد قهر الظلم.. ومات

بشهيد لم يزل يسقي بذور الذكريات
أبدا ما هنت يا أفريقيا يوما علينا

بالذي أصبح شمسا سطعت ملء يدينا
وشذى تعدو به الريح، وتختال الهويني يا بلادي
أصبح الصبح.. قباب عاليات، وبيارق
تفرش الأفق.. ودقات نحاس وطبول
إيه يا أفريقيا الكبرى التي تبني المشارق
أنا ما زلت أرى وجهك في ضوء الحرائق

أمس.. والظلمة كانت تسكن الدرب الطويل
والخطى فوق الخطى.. والجفن فوق الجفن عالق يا بلادي
أصبح الصبح.. لنا خلفك يا صبح الحصاد
ألف صبح قد نسجناه بأضواء العيون
أيها القادم محمولا على سمر الأيادي
يا حصاد العرق الدامي.. وميراث الجهاد
أيها التاج على جبهة شعبي.. وبلادي
آه ما أروعك اليوم، على هذا الجبين

الخرطوم ١٩٦٤

الندم

يولد في أعماقنا كالشجر الغريب
يكبر مرتين .. قبل ما نراه
كما تهب فجأة سحابة المغيب
والشمس ما زالت تبارك الحياة
وعندما يولد فينا ذلك الزوال

في لحظة تعرفها الحياة بالقلق
نصبح نحن مثلما نغوص في الرمال
ذاك لأن شيئاً في نفوسنا احترق
نصبح أعينا ترى... ولا نرى

جامدة مثل عيون ميتين
نصبح أرؤسا ثقبها الكرى
وصب ملؤها الفراغ والسكون

نصبح أقداماً تغوص في ثرى
يغوص تحتها ملايين السنين

ذاك لأن شيئاً في نفوسنا ثمين
داست عليه قدم
ذاك لأن الندم
يشب في أرواحنا كل حين

في ضوء الفجر

في ضوء الفجر ابتلت بالدم خمسة رؤوس
انطفأت خمس شموس
كانت في آفاق بلادي
ذات الأحزان الصخرية
تتألق في ليل الكابوس
باسمك أيتها الحرية

في ضوء الفجر
تدفق شيء كالشلال
تدفق في أعناق رجال
صنعت أيديهم الاستقلال
صنعته من أجل الأجيال
أو... يا ثمن الحرية

أو مازال علينا كي نعبر درب الهم
أن نغسل أوجهنا بالدم
دم خمسة شموس بشرية
أوه... يا ثمن الحرية

في ضوء الفجر الأخضر...
كان الليل يجر خطاه
جاحظة فوق الدم عيناه!

تحت الأمطار

أيها السائق
رفقاً بالخيول المتعبة!
قف..
فقد آدمي حديد السرج لحم الرقبة
قف..
فإن الدرب في ناظرة الخيل اشتبه
هكذا كان يغني الموت حول العربة

وهي تهوي تحت أمطار الدجى مضطربة
غير أن السائق الأسود ذا الوجه النحيل
جذب المعطف في يأس
على الوجه العليل..
ورمى الدرب بما يشبه أنوار الأفول
ثم غنى سوطه الباكي

على ظهر الخيول..

فتوت..

وتهاوت..

ثم سارت في ذهول!

١٩٥١

قطرة ضوء

يا جفني الساهد.. نم
قد رقدت حتى الظلم
حتى حقول الحنطة
المتشحات بالسقم
حتى مسارج الزيوت
العالقات في الخيم

حتى عيون الأفق
المنطفئات في سأم
حتى مباخر الشذى
حتى مراوح النسم
حتى أراجيح الظلال
الراقصات بالقمم
لم يبق في الوجود

كائنا سوانا لم ينم
نحن الذين نقطر الضوء
بأجفان الرمم..
يا كم تكحلنا بليل..

وتدثرنا بهم!!
وكم مشينا فوق شوك اليأس
من نجم لنجم
وكم حرثنا حقلنا..
بفأسنا الأعمى الأصم
وكم حصدنا.. حصدنا

ما زرعنا.. ثم لم!!
بلى.. جنينا ملء أيدينا
جراحات.. ودم!
كأننا لما زرعناه
بذرنا ألم..
يا جفني الساهد نم
قد رقدت حتى الظلم

هواها

تقولين أن يدي ضيعتك
وقد كنت تحين ملء عروقي
وأن هواك العظيم.. العظيم
زجاج تحطم فوق طريقي
وإنك أصبحت قبراً قديماً من الذكريات
يعيش بقلبي
ينام الشذى فوقه والعفونة
والورد الشوك جنب لجنب
وأني أصبحت عنك غريبا
يمر عليك فلا تعرفينه
غريبا تلاقيتما مرة
وغطتكما ظلمات المدينة
إذن فاسمعي إنني سأغني

سأعزف لحن الجنان الكبير..
فقد آن لي أن أهز الحياة بحزني..
بكل مراثي القبور
سيحيا بلقبي كل صباح هواك..
ويذبل عند الهجوع..
فأدفنه في خرائب نفسي
وألقي عليه تراب الدموع
وأسهر طول ليالي الشتاء
أضيء الشموع. وأطفئ الشموع
واقطف زهر الظلام الحزين
وأنثره فوقه في خشوع
وأحنو بكل كياني عليه
وألثم جبهته الباردة
وأغرق ناري في شفتيه
وناري ملعونة حاقدة
إلى أن يجيء الصباح الجديد
وينفجر الدم ملء السماء
فيحيا بقلبي هواك الشهيد
لأندبه خلف سوء المساء!

١٩٥٤

إلى امرأة عاشقة

لا.. لم يكن وهما هواك
ولم يكن وهما هواي..
إن الذي حسبته روحك
قد تبعثر في خطاي..
ما زال طفلاً صارخا
جوعان يرضع من رمادي!

وترددين..
وأنت ذاهلة..
مطأطئة الجبين!
كيف استحلت على يديه
تراب تمثال مهين..
كيف اختفت أيامه البيضاء
من عمري الحزين!

وترددين..
وملء جسمك
رعشة متندمة..
كم كان يهواني..!
ويعبد روحي المتألمة
ويود لو يلقى ضياه

على سمائي المظلمة
وتضج في دمك الشهي
مجاعة الشوق الدفين
فأراك في جدران غرفتك الحزينة
تركضين..
كالنور في قيد الدجى..
كالدمع في عين السجين..
وأراك مطرقة على الأوراق

في صمت ضجر..
وهمومك السوداء
حولك مطرقات تنتظر..
كعجائز متجمعات

حول ميت يحتضر..
ويمر يومك ميت الخطوات
كالشيخ الضرير..
أسوان يثقله الدجى..

والرعب، والمطر الغزير
وتطل خلف زجاجه
أطياف شاعرك الأثير
وتجيء مركبة المساء
بصوتها القلق الكئيب
سوداء تجثم فوقها
أقدام عملاق رهيب
وتجرها خيل محدبة

كألسنة اللهيب
وتروح واقفة ببابك
في عناد تنتظر..
فأراك هابطة
تشد خطاك أغلال القدر
حتى إذا ضمتك..

غابت في الظلام المتعكر
وتظل توغل في المسير
تشق أستار الغيوب
وتظل تقذفها الدروب النائيات..
إلى الدروب..
ويظل قلبك..
مغلقا فوق المواجع والندوب

وهناك خلف جزيرة مجهولة
خلف البحار..
تنمو على شطآنها السوداء
أحزان النهار
وتشب أشجار الخطايا
مثقلات بالثمار

ستكف مركبة العواصف
عن موالاة المسير
وستهبطين غريبة..
خرساء، جامدة الشعور
تتكلمين بلا صدى

وتقهقهين بلا سرور
ولسوف يزحف ألف وجه
ألف عبد مارد..
من ألف كهف مظلم
من ألف قبو بارد
ولسوف يستبقون نحوك
في عويل حاقد..
ولسوف تضطربين

في ذعر عميق النظرة
وتموت صرختك الرهيبة
في ضجيج الزحمة
وكأنما حملتك رجلا آدمي ميت

لكن أجنحة محلقة ستقبل من بعيد
في لهفة مجنونة
تطوي انتفاضتها الحدود
وتضم رعبك في أسي
وتعود في وله شديد
وستطبقين جفونك

المسحورة المتبسمة
والحب يوقد في سراديب الكآبة أنجمه
وعلى شفاه الكائنات قصيدة مترنمة
لا .. لم يكن وهما هواك

ولم يكن وهما هواي إن الذي حسبته روحك
قد تبعثر في خطاي
ما زال طفلاً صارخا
جوعان يرضع من دماي

١٩٥٤

لقاء

لعلك ما زلت مثلي..
تعيشين في رعشة الليلة الخالدة
فقد كان ملء الفضاء عويلا
وملء عواطفنا الجامدة..
وكان لقاء حزينا..
حزينا كأوجه أيامنا الراكدة..

عرفنا به كيف يبكي التراب
وترتعد الجثث الهامدة!
وحدقت في بوجه غريب
عميق الكآبة.. عاتي القلق
رأيت عليه خمود الرماد.
وذل الأنين.. حزن الغسق
فشردت عيني في كل وجه

وأطلقت روحي ملء الأفق
وألصقت فوق فمي بسمة..
كأنفاس مجمرة تحترق..
ورحت أغني
بأغنية ملوثة.. بدماء الخطايا..

ترددها صرخات الكسارى
إذا طوفوا ببيوت البغايا
ورحت أجرجر خطوي بعيدا
لأخفي عن الذكريات أسايا..
لكي لا أراك..
لكي لا أرى الثلوج تغطي الحقول العرايا

لكي لا أرى جثة ميتة..
تطل بعينين نحو الحياة
بعينين عذبتاني طويلاً
وعلمتا كبريائي الشكاة
بعينين كنت أرى فيهما
خضوع العبيد، وبطش الطغاة
وكنت إذا ما سئمت ترابي

حلقتا بي نحو الإله!
وغبت.. وغبت بقلب الزحام
زحام الطريق.. الطويل.. القديم
وكل الذي بين أجفاننا
سماء مكفنة بالغيوم

وكل الذي خلف أعماقنا
مقابر معشوشبات الهموم
وكل الذي سوف يبقى لنا
من العمر.. رعشة حب عظيم

١٩٥٥

إلى وجه أبيض

الآن وجهي أسود
ولأن وجهك أبيض
سميتني عبداً
ووطئت إنسانيتي
وحقرت روحانيتي
فصنعت لي قيداً
وشربت كرمي ظالما

وأكلت بقلي ناقما
وتركت لي الحقد
ولبست ما نسجت خيوط مغازلي
وكسوتني التنهيد والكدا
وسكنت جنات الفراديس
التي بيدي نحت صخورها الصلدا

وأنا.. كم استلقيت في كوخ الدجي
أتلفح الظلمات والبردا
كالشاة.. أجتر الكآبة
عاقدا حولي دخان تفاهتي عقدا

حتى إذا انطفأت مصابيح السما
وانساب نهر الفجر ممتدا
أيقظت ماشيتي الهزيمة
وانطلقت أقودها لمراحها قودا
فإذا سمن نعمت أنت بلحمها

ونبذت لي الأمعاء والجلدا!
لا يا أخي..!
إن التهاب مشاعري هيهات بعد اليوم أن يهدأ
هيهات
لم أخلق عليها بومة
تقتات بالديدان أو قردا
أنا كائن أمي وأمك طينة
والنور ليس لأبيا جدا
فالأم تحرمني حقوقي؟

بينما تلقي السعادة أنت والرغدا

وإلام تستعلى بأنفك سيدا؟

وأنا أطأطئ هامتي عبدا

إني صحوت..

صحوت من أمسي

وذي فاسي تهد قبوره هدا

سأكون نارا.. فالحياة تريدني نارا

وأرقص فوقها رعدا..

فأخلع براقع كبريائك..

إنني أسكنت جيفة ذلتي لحدا

واضمم يديك إلى يدي..

نشد معا صرح المحبة بيننا شدا

إني أخوك فلا تعق أخوتي..

فتزيد بركانيتي وقدا..

إياك.. لا تبذر بذور عداوتي

فتعود تحصد شوكها حصدا

إياك لا تزرع حقولك عوسجا

إني زرعت حقولي.. الوردا

١٩٤٨

مات غداً

مات.!

فلم تحزن عليه قطرة من المطر

ولا تجهمت أوجه حفنة من البشر

ولا أطل ذات ليل فوق قبره القمر

ولا تلوث دودة كسلي..

ولا انشق حجر

مات غدا..

متسخ الجثة..

منسي الكفن

كحلم..

– واستيقظ الشعب –

كإعصار نتن!

مر على حقول الورد ساعة السحر

مات!

وملء روحه المسودة المحترقة
ماض يغطيه دم المشانق المعلقة
وصرخات الثائرين في السجون المطبقة

وأوجه العجائز الأليمة.. المشققة
وهن يرفعن إلى السماء..
في أسى ذليل
أذرعة معوجة مثل مناجل الحقول
وأعينا يغوص فيها ظل مشنقة!

يا ابني..!
ترى أين مضى الجند بوجهك الحبيب
فحرموني شمة الثوب.. ونشقة الطيوب

الله.. ما أجمله ابني.. في شبابه القشيب
كأنما يمشي على كل عواطف القلوب

ابني؟
وأوصد السجان باب سجنه الكبير
وزحفت سلسلة راح يجرها الخفير
وأنهار كرباج يلف الليل بالنحيب

– وأنت يا أبي
ألن تعود لي قبل الشتاء؟
إنا جميعا لم نزل نبكي..
نضج في البكاء
أنا، وإخوتي وأمي
في الصباح والمساء

فعد لنا
كي لا يسمونا يتامى فقراء
كم مرة سألت كل الناس في حزن شديد
أي بريء!
فلماذا صفدوه في الحديد؟
فأطرقوا..
كأنهم جميعاً سجناء

وذات ليل طرقوا الباب ومروا داخلين
من أنتم؟
ماذا تريدون؟
وماذا تحملون؟
أما كفاكم أنهم وراء قضبان السجون

لكنهم ألقوا إلى قرب الجدار جثته
وحدقت في وجوه الذكريات الميتة
وجففت مدامعي دموع الآخرين

غدا يمر موكب الجوع بدربنا القذر
فاخضوضري يا سنوات القحط
وانزل يا مطر..
أغرق حقول الأرز والقمح
وأغرق النهر
وامسح بكفك الرمادية أحزان الشجر

لا بد أن تصبح يوما غلة الحصاد لي
وتصبح السماء والأرض ومجرى الجدول
وتنتهي مجاعة التراب
والبشر!

وذات يوم مظلم رطب..
كسرداب طويل..
صحا يهز راحتيه في تشنج ذليل
وكانت الأيدي التي تحكي مناجل الحقول
تمتد في عينيه سوداء كأشجار النخيل

فانهار فوق الأرض..
في حشرجة ممزقة
ثم تدلى من جدار الأفق حبل مشنقة
وجثة باردة تسقط في الوحول

الطوفان الأسود

لقد غسل النور أرضك..
حتى سراديبك الرطبة المظلمة
مشى الفجر فيها بأنفاسه..
يفضفض أيامك القادمة
فهل تسمعين أغاني الزنوج

تدوي مثقلة بالحياة
وهل تبصرين وجوه العبيد؟
تقهقه حول نعوش الطغاة!
لقد كنت مقبرة، ضخمة
تدوس عليها خيول الغزاة
وكنت بقية أسطورة.. ملوثة
بصقتها الشفاه!
"بلاد العبيد.. إفريقيا.."

يلا بلاد الزنوج الحفاة العراة
نرى كيف يمشون في عريهم
وكيف يعيشون خلف الحياة؟
وأجسامهم
ذلك الأبنومي العجيب!

المفصل مثل البشر
ونيرانهم في شعاب الجبال
وأطفالهم في بطون الشجر.."
متى أجد المال
كي أشتري حذاء، وكلبا، وثوبا جديد

وأمضي إلى أرض أفريقيا
لأصطاد قافلة من عبيد!
فإني أمرؤ أبيض كالثلوج
ولست عظيما لأني فقير
وقد كان لي رفقة..
ثم عادوا سراة عظاما
فلم لا أسير؟
لكم أشتهي جسدا دافئا

مهيبا.. لزنجية جامحة
فقد قيل إن لحوم الجواري
لها نكهة.. ولها رائحة..
بلاد الكنوز! إفريقيا
يلا بلاد الزنوج الحفاة العراة

سأتيك يوما.. كغاز جديد
يريد الغنى، ويريد الحياة
كذلك عشت ألوف السنين
تخزين، فوق خطايا وثن..
إلى أن تسلل ضوء الصباح إليك

فمزقت عنك الكفن
وقمت كماردة تتلقى الضحى
وتحول مجرى الرياح
وتحفر تاريخها من جديد
على جبهة الشمس حفر الجراح!
فهل تسمعين أغاني الزنوج
تدوي مثقلة.. بالحياة
وهل تبصرين وجوه العبيد

تقهقه حول نعوش الطغاة!
كذلك كان يغني لها
ويقرع ناقوسه في جنون..
وإن لم تزل تتلوي القيود على قدميها
وتبني السجون على أرضها..
وتقام المشانق ترتجل الموت في كل حين!

فقد كان يحمل في روحه
تمرد أجداده أجمعين
تمرد جد قضي ليلة يصب المياه على الموقد
ولما أبي.!
مزقته السياط
فحطم جمجمة السيد؟

وآخر كانت تنام الشياه وتصحو
على صوت مزماره
وفي ليلة، كفرت روحه
بجزارها، وبجزاره
فهب، فأشعل أحقاده
فسالت جحيما بوجه الصنم

وأبصره الغد فوق الرمال
تكفنه عزة المنتقم!
وآخر أسود بادي العبوس
طويل، رفيع، كصاري سفينة
وقد حدثوا أن ميلاده
بإحدى ليالي الشتاء الحزينة

كما حدثوا أن أول جيش من البيض
دنس أرض الوطن!
ينام بمقبرة حفرتها محاريثه
خلف سور الزمن
وقد كان يؤمن في عمقه
بحرية السود، والكادحين

وحتى الطغاة الذين انتهوا
وآلهة البشر الساقطين..
وكالموت حين يغطي الحياة
بأفراحها، وبأحزانها
وكالصمت حين يضم الحقول
بأصواتها وبألوانها

تراءت له مثل صفصافة
تفسء إليها جموع الظلال

محمد الفيتوري جـ١

وكانت أكف الهجير الضرير
تسمر أقدامه في الرمال
فوسد أحزانه صدرها
وأطبق أجفانه في سكون
كميت تداعبه موجة
وتهوي به في اصطخاب حزين

وراح يرى ملء أحلامه
جزائر غارقة في الغمام
يظلها نغم أزرق..
شفيف، شفيف بلون السلام
وكانت هنالك عند الشمال
حقول متوجة بالغلال
وقوم من السود مستغرقون
يرصون أكداسها في التلال
وأصواتهم وزغاريدهم
ترفرف صاعدة من بعيد

كما يتصاعد كل صباح ضباب الحقول
ببطء شديد
وحين تصف طيور الغروب

على الأفق أجنحتها المذهبات
وتمضي تنقر ثوب السكون
بكل مناقيرها المتعبات
تراهم يلوحون فوق الدروب
أو يتوارون خلف الشجر
وهم عائدون إلى دورهم
بأيد مثقلة بالزهر

وأسكره حلمه العاطفي
فبعثر أشواقه أجمعين
وعانق إخوانه باكيا
ومد يديه إلى الآخرين
وهزته أفراحه.. فأفاق
على ظل صفصافة واقفة
وكانت جموع الزنوج العراة
تحركها ثورة العاصفة

فسار يغني مع السائرين
وهم زاحفون إلى الطاغية
ويحفر فوق جدار الزمان
أغاني إفريقيا الدامية!

١٩٥٣

الأفعى

في ذلك الركن من قلبك
الحقير المرائي..
تمتد مقبرة ضخمة..
بغير انتهاء
فيها عبيد عرايا الأسى
عرايا الشقاء
تحمل أيديهم الشوهاء

حقد الدماء
وملء أرواحهم
نقمة على الأحياء
رأيتهم يتهاوون
في جمود المساء
والريح من حولهم

كالحوائط السوداء

والليل بئر كبير

مختلط الأشياء

وأنت.. أنت وراء الجميع

طيف القضاء

تضطجعين بصمت مر

كطعم الدماء

في هودج ذهبي

مزركش بالضياء

يدوس فوق عظام الفانين

والغرباء

فتستبد بأذنيك لعنة الأصداء

وتضحكين بحقد

بلذة باشتهاء

وتحلمين كأفعى

تنام في استرخاء

على رمال الصحاري

اللهبية الصفراء

بفارس قدماه
فوق جبين السماء
أسود قد أنضجته
مواقد الصحراء..

تفوح من إبطيه
رائحة الأنبياء..
وفي خطاه..
جلال النبوغ والكبرياء

١٩٥٤

حدث في أرض

أنا لا أملك شيئاً غير إيماني بشعبي..
وبتاريخ بلادي
وبلادي أرض أفريقيا البعيدة
هذه الأرض التي أحملها ملء دمائي
والتي أنشقها ملء الهواء
والتي أعبدها في كبرياء
هذه الأرض التي يعتنق العطر عليها والخمول

والخرافات وأعشاب الحقول
هذه الأسطورة الكبرى.. بلادي
ذات يوم لم يزل يثقل بالنقمة أرواح جدودي
ذات يوم لم يزل يزحم أيام وجودي
وقفت أرضي ترنو للمقادير حزينة
وقفت كامرأة تنسج أكفان السكينة

وقفت مطرقة الرأس مهينة
ورأت في نظرة واحدة.. أو نظرتين
نظرة خائنة صفراء ذات أجنحة
سفنا تزحم أعماق البحار النازحة

سفنا تغدو، وأخرى رائحة
سفنا مكتظة بالأسلحة
وبأبناء بلادي
وبخيرات بلادي
وبتاريخ بلادي
ورأت ملء شقوق الأرض آثار سياط دامية
ورؤوسا عارية
ووجوها باكية
ودروباً كالقبور اختلطت كتل السود بها والماشية!!

ذات يوم أبصرت أرضي حقول الأبنوس الجارية
وهي تبكي في سكون وضجر
تحت رحمة البشر
وإرادة السماء والقدر
ورأيت كيف تدور الساقية

فوق أبناء بلادي

ورأيت في نظرة واحدة أو نظرتين

كلمة يكتبها الأبيض في ليل بلادي

يا بلادي

ذات يوم وقفت أرضي حزينة

حينما لاحت على الأفق سفينة

ولأن الحزن نار باردة

تتمطى في صدور من جليد

بقيت أفريقيا مستعبدة

تخلع القيد إلى قيد جديد!

ولأن الضعف سجن

ولأن الخوف سجن

ولأن الماضي المظلم سجن

بقيت أفريقيا مستبعدة

تنقب السجن إلى سجن جديد!

ولأن الموت عبد

ولأن الظلم عبد

ولأن الحر عبد في بلاد مستغلة

ولأن القدر السيد عبد يتأله

والنبوات مظلة

والديانات تعلة

هب من كل ضريح في بلادي

كل ميت مندثر

كل روح منكسر

ناقماً على البشر

كل أعداء البشر

كافراً بالسماء، والقضاء والقدر

١٩٥٥

عن الشعر والكلمات الميتة!

-١-

إن الكلمات الميتة، كالأشجار الميتة

دون ظلال..

تعبرنا حين تقال..

الكلمات الميتة

كنباتات الشطآن الصخرية زلقة

تتسلقنان بيد الشفقة

بالضحكات المرة

بالحزن المر

بالإحساس العادي

من روح الشعر

-٢-

عن موت الكلمة
قال الشاعر، كيف تموت الكلمة؟
جلد الأفعى الجبلية يلعقني..
يتمسح بي..
أحرقت بخوري للأفعي الجبلية
ما زالت تتمسح بي

إني والأفعى أوشك أن أنسى أني..
استغرق ليل نهار
ما شأني أن تسود النار
أن يسقط ظل فوق جدار
أو لسنا أحراراً، فيما نختار
وأنا لا أنسى.. لا أقوى

قال الشاعر
والأفعى تحلم ثانية أن تلعقني
والدهليز الرطب يغني
يحشو نارجيلته، ثم يظل يغني.
أنا فارسها..

أنا سيدها الأول

أعطتني كل هدايا موسمها الأول..

ثم اخضرت أشجار الصيف

الفاكهة الخضراء

احمرت بعد هبوط الصيف

لا بأس فقد قضينا بعض الوقت

ما جدوى أن نتسلق سور الصمت أنا قد ثرثرت فعذراً..

قال الشاعر..

ألهتني تلك المرأة..

أنستني.. فنسيت

كنا نتحدث عن كيف الكلمات تموت

-٣-

عينان على أرض الشارع

عينان تضيئان الشارع

عينان على قدمين

الرأس على أربع

المجد على قدمين

العار على أربع

قال الشاعر:

– كيف الكلمات تموت..

وسار على أربع

زلقت في عينيه قدما طفل ضائع

لا تخجل يا عصري الرائع

فعلى أرض الشارع

أطفالك..

ما زالك كف الطفل الضائع

تتمرغ في جسده

الأسماك الصفراء

تعرت عن جسده

الطفل يحاول يخفي

عورته بيده!

الطفل يحاول أن يخفي عورة بلده

ذاك الطفل الرائع

يلتفت في خزي مهموم..

يتعثر ثم يقوم

قال الشاعر، كيف الكلمات تموت

وتذكر في زهو فاجع
وجه الأنثى الأولى
وازدادت قامته طولا
وتناسى وجه الطفل الشحاذ المرسوم
في أسفل الشارع

-٤-

قلب الدنيا يتنفس من رئتي باريس
أحلى أشعاري
ما غنيت به باريس
"أوروبا" تحملني في عينيها
أما باريس فترضعني من ثدييها
لا أكذبكم أني أهوى باريس
والنعاس يمط ذراعيه

يتلصص خلف زجاج الحان
كلب الشرطي يحدق
في لون الحيطان
وعلى باريس المخمورة
ثلج ودخان

وأنا وفتاتي البوهيمية..
ملتصقان
الفجر الأحمر يفرك عينيه
وأنا عريان
أتسكع كالصعلوك

على قدمي باريس لا أكذبكم. قال الشاعر
في هذا الشرق، الشاعر يصبح كالقديس
وتقولون الكلمات تموت
ماذا يبقى للناس إذن
لو ماتت كلمات الشعراء
"الشاعر زنجي من أفريقيا السوداء"

-٥-

حيث موانئ الرياح والسحب
وحيث تهبط السماء عن كثب
وحيث يولد الجلال والغضب
وحيث يركض التعب
والحوت والزراف والذهب
حيث نوافذ الغيوم مشرعة

العرش كان مزرعة
والتاج والإكليل كان نصف قبعة
بالية، بادية الصدا، مبقعة

تخفي حريث الشمس الاستوائية
عن جنتي حسناء زنجية
مليكة في الغاب منسية
نحيلة كالقوس محنية
تقول في مزارع الكاكاو والقصب

كأنما تعاتب السحب الرمادية:
"ليس لأننا ارتضيناه
حين احتضناه
خلف مآقينا لكن لأنه لم يزل فينا
يعيش في رجع سواقينا
في دمنا، وفي أيادينا
في رقصنا وفي أغانينا
الحزن ما سال به صوت مغنينا"
– بعض الكلمات
قديما قال الشاعر

مثل سحائب صيف

بعض الكلمات

لصوص تحت الليل مبطنة الأقدام

فاحذر أن يجري في كلماتك

ماء الزيف

كي لا تمشي فيها الأقدام

١٩٦٤

مقتل السلطان تاج الدين

(بطل شعبي قاد نضال قبائل المساليت المشهورة في غرب السودان، ضد القوات الفرنسية الغازية.. وسقط شهيداً في معركة النصر عام ١٩١٠).

-١-

فوق الأفق الغربي سحابا أحمر لم يمطر
والشمس هنالك مسجونة
تتنزى شوقاً منذ سنين
والريح تدور كطاحونة
حول خيامك يا تاج الدين
يا فارس
سرج جوادك ليس يلامس ظهر الأرض
وحسامك مثل البيرق يخترق الظلمات

يا فارس
مثل الصقر إذا ما انقض
بيتك عالي الشرفات
نارك لا تخبو.. لا تسود
وجارك موفور العرض
يا فارس..
حتى مات!

-٢-

"كان السطلان يقود طلائعنا
نحو الكفار
وكان هنالك بحر الدين
وأشار إلينا تاج الدين
وأطال بعينيه كالحلم..
في قلب السهل الممتد
ثم تنهد:
الحرب الملعونة
يا ويل الحرب الملعونة

أكلت حتى الشوك المسود
لم تبق جداراً لم ينهد
ومضى السلطان يقول لنا
ولبحر الدين:
– هذا زمن الشدة يا إخواني

هذا زمن الأحزان
سموت كثير منا
وستشهد هذي الوديان

حزنا لم تشهده من قبل ولا من بعد
وارتاح بكلتي كفيه فوق الحربة
ورنا في استغراق
نحو وجوه الفرسان
كان الجو ثقيلاً، مستوقفاً بالرهبة

وبحار من عرق تجري فوق الأذقان
وسيوفهم المسلولة تأكلها الرغبة
والخيل سنابكها تتوقد كالنيران
ومضى السلطان يقول لنا
ولبحر الدين:

– هذا زمن الشدة يا إخواني

فسيوف الفرسان المقبوضة بالأيدي

تغدو حطباً ما لم نقبضها بالإيمان

والسيف القاطع في كف الفارس

كالفارس يحلم بلقاء الفرسان

وترجل تاج الدين

جبل يترجل مزهواً من فوق جبل

وترجل بحر الدين

وحواليه عشرة آلاف رجل

سجدوا فوق رمال "دروتي" لله معه

وأطلت كل عيون الطير المندفعة

في هجرتها من أقصى الغرب لتاج الدين

فعلى أفق الوادي الغائم

تمتد رؤوس وعمائم

وبيارق يشبهن حمائم

ثم ارتجفت أفواج الطير

وراء السحب المرتفعة

-٣-

– يا تاج الدين
الأعداء أمامك... فارجع
لهب.. وقذائف حمر..
وخوذات تلمع
والحربة مهما طالت
لن تهزم مدفع
لن تهزمهم يا تاج الدين
بسلاح كزمانك مسكين
وكعاصفة سوداء تلفت تاج الدين

في سخط الجبارين تلفت تاج الدين
وأطل على وجه القائل
كانت شفتاه رعوداً وزلازلا
كانت كلمات السلطان
سلاسل
– يا ويلك لو لم تك ضيفي يا عبد الله
ما أقبح ما حركت به شفتيك
ما أبشع ما منيت به عينيك

عار ما قلت..
وعار أن نستمع إليك
فاثن زمام جوادك
وخذ الدرب الآخر
يا بحر الدين أعده للدرب الآخر

-٤-

وتدفقت الرايات
وغطى الأفق صهيل الخيل
و"دروتي" العطشى ما زالت
تحلم بمجيء السيل
وتحدر من خلف الوديان المحجوبة

علم قان.. ومدافع سبعة منصوبة
وحرائق وضجيج شياطين
هاهم قدموا يا تاج الدين
فانشر دقات طبولك ملء الغاب
حاربهم بالظفر، وبالناب
طوبى للفارس
إن الموت اليوم شرف

طوبى للفارس
إن الموتى اليوم شرف
داسوا عزة أرضك
هتكوا حرمة عرضك
عاثوا ملء بلادك غازين
غرباء الأوجه سفاكين
فاضرب.. اضرب.. يا تاج الدين
اضرب.. اضرب.. اضرب

-٥-

يا مولاي السلطان
سلام الله عليك
قتلى أعداؤك مطروحون
لدى قدميك
أسرى مغلولون وخدام بين يديك
أكلت نيران مدافعهم نيرانك أنت
بالسيف وبالحربة
وبإيمانك قاتلت
يا فارس تسحق أعداءك

أني أقبلت

حين استبقوا نحوك

باسم بلادك ناديت

"لن يحجبني عن حبك شيء"

"إنك ملء دماي وعيني"

"يا دار مساليت أنا حي"

-٦-

وهجمت فأجفل قائدهم

وانشق ستار

كان ستار رصاص

كان ستاراً من نار

نصبوه في وجهك صفين

كي لا ترى قادتهم بالعين

لكنك يا فارس أقدمت

فوق المدفع بالسيف مشيت

ولحقت بقائدهم فانهار

القائد ذو الجبروت انهار

ذو المركبة النارية والخوذات انهار

أحني رأساً ماتت في عينيه الرغبات
مد يديه يبكي في حشرجة الأموات
عرى صدراً دموياً أعشب فيه العار

هذا الصدر العاري المنهار
من قبل لقائك زانته نياشين الأكبار
لكنك يا فارس آليت
ألا تهب الكافر صفحك
أن تسقي من دمه رمحك
أن تصلبهم عبر الفلوات
أن تجعل موتاهم مثلاً
لزمان عبر زمانك آت

-٧-

تحت الراية رأس القائد في الدم
أرخي عينيه في رعب..
ثم استسلم
سلمت كفك يا تاج الدين
فاقض على أحلام الباقين
صاروا بعد القائد

قطعان غنم

طاردهم بجنودك

عبر الفلوات

عبر "دروتي" عبر الأكمات

قتلاك من الأعداء مئات

والأسرى قد ملأوا الساحات

والقائد ملقى في الطرقات

سلمت كفك يا تاج الدين

-٨-

لكن الشمس المسجونة

والريح الحبلى الملعونة

ما زالت مثل الطاحونة

تجري.. تجري حول خيامك

تجري من خلفك وأمامك

– يا تاج الدين

– يا تاج الدين

ما زال عداتك مختبئين

أيديهم راعشة.. ورصاص بنادقهم

يتزاحم في بطء نحو جبينك

يا فارس خذ حذرك

من طعنات طعينك

يا فارس خذ حذرك

يا فارس خذ حذرك

ليتك لا تتحرك

فبنادقهم ما زالت راكضة إثرك

أترى تثقب رأسك

أترى تثقب رأسك

يا فارس خذ حذرك

ليتك لا تتحرك

وتحرك تاج الدين

كانت عيناه حينئذ

تقفان على جرحاه

والراية في عينيه حينئذ

تقفان على جرحاه

والراية في عينيه

قد لطخا الدم

وأتت ريح خريف

تتراكض خلف خطاه
وتجهم وجه "دورتي" بالسحب وأظلم
وأتت بضع رصاصات
خجلات مضربات
أقبلن من الظلمات
فرأينا تاج الدين
يبدو وكأن قد مات

يا تاج الدين سلمت
مزق أستار الصمت
عد من وديان الموت
أو تذهب حتى أنت
وتساقط تاج الدين
لم يقوَ الفارس أن يرجع
لبكاء الشعب عليه
فرصاصات خمس صدئات
تسكن في عينيه
لكن أحداً لم ير رايته
تسقط من كفيه

الجنينة – دار مساليت مارس ١٩٦٤

ياقوت العرش

دنيا لا يملكها من يملكها
أغنى أهليها سادتها الفقراء
الخاسر من لم يأخذ منها
ما تعطيه على استحياء
والغافل من ظن الأشياء

هي الأشياء!
تاج السلطان القاتم تفاحة
تتأرجح أعلى سارية الساحة
تاج الصوفي يضيء
على سجادة قش
صدقني يا ياقوت العرش
إن الموتى ليسوا هم
هاتيك الموتى

والراحة ليست

هاتيك الراحة

عن أي بحار العالم تسألني يا محبوبي

عن حوت قدماه من صخر

عيناه من ياقوت

عن سحب من نيران

وجزائر من مرجان

عن ميت يحمل جثته

ويهرول حيث يموت

لا تعجب يا ياقوت

الأعظم من قدر الإنسان هو الإنسان

القاضي يغزل شاربه لمغنية الحانة

وحكيم القرية مشنوق

والقردة تلهو في السوق

يا محبوبي..

ذهب المضطر نحاس

قاضيكم مشدود في مقعده المسروق

يقضي ما بين الناس

ويجر عباءته كبراً في الجبانة
لن تبصرنا بمآق غير مآقينا
لن تعرفنا
ما لم نجذبك فتعرفنا
وتكاشفنا
أدنى ما فينا قد يعلونا يا ياقوت

فكن الأدنى
تكن الأعلى فينا
وتجف مياه البحر
وتقطع هجرتها أسراب الطير
والغربال المثقوب على كتفيك
وحزنك في عينيك
جبال
ومقادير
وأجيال
يا محبوبي لا تبكيني
يكفيك ويكفيني
فالحزن الأكبر ليس يقال

الإسكندرية – ١٩٦٦

نقش على شفتين

نقشوا اسمك في شفتي..
وكانت بيروت الغجرية معشبة القدمين
يستلقي معطفها الوحشي كسولا
في ظل الكتفين
وقبعة من ريش نعام

تقضم أطراف الأذنين
ويرقرق دمعته قلب العقد الماسي
وتسقط من فم مولاتي القاسي
ضحكات العام
ويمر خلال الضوء غلام
بيروت عجوز تلبس زينتها
في كل مساء
لكلاب الصيد.. وللغرباء

أما نحن الفقراء
ويحرك كالمجنون يديه
ويبصق في استعلاء
والليل الشتوي السنجابي الأحلام
يتوارى في غابات الأرز

بعيداً عن وهج القاعات
والبالونات
وأشجار الميلاد
والساعات المتلاصقة الأقدام
تترقب شاحبة
خطوات القادم عبر ممرات الأيام

ويطل يسوع..
الثلج يعطي بردته البيضاء:
– هل أنت أتيت
غريباً يقطر وجهك حزناً
حيث مشيت
مسيرة ألفي عام
لا خبزك أنت ولا ملح الأديان

الحق أقول...
الخالق والمأساة هو الإنسان
ويغيب يسوع
وتلوح وجوه الاثني شعر
– الأسفار اهترأت
ما بين دخان التبغ وضوضاء الحانات

وحواة السيرك، وفرسان الحلوى
وملوك الصالونات
عودوا لمغارتكم
فالعالم لم يعد العالم
وابكوا.. ابكوا
فيهوذا الخائن فوق محفته الملكية آت
وتغيب وجوه الاثني عشر
ويخضر اسمك في شفتي

كالنقش الفرعوني
على قبر منسي
كالنقش على أعناق الطير
على جلد الحيتان

كالنقش على أكتاف أمير أفريقي
كان اسمك في شفتي
منقوشاً منذ استيقظت الأكوان
وأتيت العالم طفلاً

أغرقه الطوفان
فأخطأت الرؤيا عيناه
ومت سنيناً
ثم بعثت
وها أنا ذا يا مولاتي
استغرق في رؤياه

بيروت – ١٩٦٧

معزوفة لدرويش متجول

شحبت روحي، صارت شفقاً
شعت غيماً وسنا
كالدرويش المتعلق في قدمي مولاه أنا
أتمرغ في شجني
أتوهج في بدني

غيري أعمى، مهما أصغى، لن يبصرني
فأنا جسد.. حجر
شيء عبر الشارع
جزر غرقى في قاع البحر..
حريق في الزمن الضائع
قنديل زيتي مبهوت
في أقصي بيت، في بيروت
أتألق حيناً. ثم أرنق ثم أموت

ويحي.. وأنا أتلعثم نحوك يا مولاي
أجسد أحزاني..
أتجرد فيك
هل أنت أنا؟
يدك الممدودة أم يدي الممدودة؟

صوتك أم صوتي؟
تبكيني أم أبكيك؟
في حضرة من أهوى
عبثت بي الأشواق
حدقت بلا وجه
وزحمت براياتي

ورقصت بلا ساق
وطبولي الآفاق
عشقي يفني عشقي
وفنائي استغراق
مملوكك.. لكني
سلطان العشاق

بيروت – ١٩٧٧

الوصايا القديمة

يومها كانت الشمس
مذبوحة في دمي
وأنا أتقاطر نشوان بالحزن
فوق الطريق
انظريني
أنا ملك الغربة المتقاطر بالحزن

فوق تراب الطريق!
البلاد التي أمطرت أنجما
وهي تغزل أردية الساقطين
بلادي
سيجت تاريخها بجفوني
وأشعلت روحي مبخرة
وتقوست أذرعه

وابتهلت إليها

– ارجعي يا بلادي.. ارجعي.

إنهم يحلمون الجنائز والموت في دمهم

يكتبون الوصايا القديمة

في فجوات العيون

إنهم ميتون

– ارجعي

آه لو لم يعدك الصدى

آه لو لم يعدك الصدى

آه..

واختبأت في الضباب بلادي

وتغربت في شفتيها

تغربت في مقلتيها

تغربت بين يديها

وأركض بالريح والموج

ثم أعود إليها

– البلاد بلادي

فلماذا إذن يولد الموت

في كل أغنية في بلادي
ولماذا قباب النبيين والشهداء
مجللة بالسواد!
ولماذا تجوع المحاريث

في مهرجان الحصاد.
لماذا تظلين أجمل؟
يأخذني النهر المتدفق منك إليا
تظلين أجمل في مقلتيا
أنا الطائر الأبدي..
الذي تتغنى به المدن النائيات
الذي تتماوج فيه الموانئ والسفن الضائعات

لماذا تظلين أنت الشهادة والغيب..
أنت النبوءة والشعر..
أنت هي الأرض والذكريات!
لماذا؟
لماذا؟
لماذا؟
تقولين أنت..

ويفاجؤني السر
أسقط في خرس الأرض
أسقط كالأرض
يحتلني كبرياء الهزيمة
– هل أنت في جسدي كبرياء الهزيمة
تثقب كل حوافرهم في عظامي

هل أنت كل حوافرهم في عظامي
هل أنتدرب غيابي؟
شمس حضوري؟
ولن اشتعالي؟
سيف انتقامي؟

أواه .. لو كنت أعرف من أنت؟
يا نصباً رائعاً من حطام البطولة
يا شفقاً من عيون التوابيت؟
يا وجه قديسة من رخام!

رحلة.. في عيون بلادي

فجأة، تحت سقف الظهيرة
كامرأة خائفة
تظفئ الشمس قنديلها
ثم ترحل في العاصفة
راحل في عذابي أنا
مثلما ترحل الشمس في رحم العاصفة

راحل في عيون بلادي
المليئة بالدمع
ها نحن ذا يا بلادي
نتقابل ثانية..
في متاهات عصر الرماد
راحل، وطني البرق
يا ويلنا، أين أمضي؟

ارحلي في،
يرتحل الجرح والأرض
فالجرح جرحى، الأرض أرضي
وأنا الريح والمدخنة
ارحلي في، يا قطعة النجم..

ترتحل الأزمنة
ما الذي أسكت الكلمات؟
تآكلت الكلمات
تمرغت الكلمات
ارحلي في..
قلب المغني حزين
وعين الملايين غارقة في السبات

ما الذي جعل الضحكات
نزيف جراح قديمة
غائرات الحفر
أنت أم أن طير الهزيمة
حط فوق غصون الشجر !
ارحلي في، مثل الطيور الغريبة...

راحلة أبداً..

تنقر الأفق بالشوق والذكريات

– سفحت عطرها غابة الشوق والذكريات

ارحلي في، لا سأما لا انهيارا

لا احتفالا بسقطتنا، لا انكسارا

نحن لم ننكسر

حينما انكسرت قامة الضفدعة

نحن لم ننهزم

إنما سقطت عن وجوههم الأقنعة

أقوال شاهد إثبات

- ١ -

عبر الدهاليز الطويلة..
التي تختال في قاعاتها الضيقة السوداء
آلهة الموت صفوفا
ناشرات خلفها الصمت والانطفاء
مشيت محكوما..
تعربت من الذكري

رقصت رقصتي القاسية الحزينة
كان دمى مئذنة، وجسدي مدينة
غنيت للجنون كيفما أشاء
أصغيت مثلما أشاء
كنت كمن ليس يبالي

أنا والتاريخ..
والنار التي تخرج من جمجمتي..

-٢-

صاعدة إلى السماء!
ثمة شيء
إنني أعترف الآن.
لقد رأيتهم...
إني رأيت القتلة
مروا على عيني
وكانوا يصخبون كالطيور الجارحة
وكانوا قضاة يحملون الأسلحة
ويمضغون الكتب المنزلة
وكدت لا أفهم ما يحدث
ما أبشع ألا يفهم الإنسان ما يحدث
– ماذا تصنعون؟!
اقتربوا..
فاقتربوا
وأمطر الفجر الرمادي رصاصاً ودماء

ومالت الأشجار في حديقة الله
وغطت وجهها السماء

– لم تقتلوا البذرة..
لم تقتلعوا الصخرة..
قلت اقتربوا..
فاقتربوا
وكشفت عن وجهها الهزيمة
واقتربوا..
وعلقوا صلبانهم في عنقي تميمة

واختلطت في ناظري الثورة والجريمة
وكدت لا أفهم ما يحدث..
ما أبشع أن نفهم ما يحدث..
ثم أشعلوا جنازتي
وطفقوا يتشحون بالرماد واحدا فواحدا

كانوا يلوحون في وجه الإله
بالنعال والمدي
– جريمة أخرى
سدى تصبغ أيديكم..

ولم تفرغوا بعد من الجريمة القديمة
أنبئكم..
لن تفلتوا غداً
من قدر الولادة الأليمة
ومن مخاض الأمة العظيمة

-٣-

والتصق الصراخ في فمي:
الجناة.. التتريون.. الضحايا..
الأسلحة..
بيارق الثورة في الوحل..
الزناة اغتصبوا السلطة
لم تنج من اللعنة حتى الأضرحة
يا وطني..!
لم تنج حتى حرمات الأضرحة

-٤-

سأعترف
يا من ستأتون غداً

إني وقفت لم أحرك شفة ولا يدا

وإنني في قمة العصر..

شهدت المذبحة!

ابتسمي حتى تمر الخيل

هذا مسار نجمهم..

أيتها الحبيبة، الغريبة

الحبيبة الكئيبة

الحبيبة، الجمال والدمامة

هذا مسار نجمهم..

أيركض في الزاوية الكبرى

قليلاً..

ثم ينهار رماداً..

راسماً في جبهة الشرق وعينيه

علامة

شهادة الميلاد، والموت

وشارة القيامة

فابتسمي

حين يجيء فمر الثورة في أردية

القتلى

ويمشي الهودج الأسود محمولاً

على محفة الأصيل

ابتسمي

حتى تمر الخيل

والبيارق المذهبة

فالخيل ليست خيلنا نحن..

ولا الصهيل..

واختبئ في مطر الضفائر

المضطربة

وكبرياء حقدك الجميل

فالبطل القتيل

ليس هو القتيل

وأنت يا حبيبتي المعذبة

متعبة

أعرف يا كم أنت جد متعبة

الدم والطاعون في الثديين

والمخلب، والمنقار حول الرقبة
والليل، والأغربة العرجاء
والوحشة، والرحيل
هذا مسار نجمهم..
هنيهة، ثم يغيب النجم

لن يمكث إلا ريثما ينهمر الغيم..
وتصحو زهرة التاريخ...
لن يجتاز بحر الموت إلا
قدما حبيبتي..
العاريتان
القدمان، والموجتان..
الشعلتان، القلعتان..
لن تغني شفة عاشقة

في شفة عاشقة
إلا إذا تبسمت حبيبتي
والنجم لن يمضي بعيداً
– آه.. يا عيني على الجراح
الذي يصبح متراساً..

على قافلة الموت التي
تيني جدار الموت..
يا عيني عليها..
وهي بين الصخر والبحر..

وآلاف المناقير..
وآلاف المخالب
– وأنت يا من يتعالى اسمك
بين الصخر والبحر..
هم الساعة، آلاف المناقير
وآلاف المخالب
لكي تصيري حبة القمح..

سيأتونك في أجنحة الريح..
وأصوات الغرانيق
وأنفاس الحرائق
لكي تصيري درة السبي..
سيأتونك بالتيجان والبيارق
وكلمات الله، والبنادق
لكي يروا مشنقة الثورة في

عينيك

لا.. ليس سوى مشنقة
الثورة في عينيك
لا.. ليس سوي...
فابتسمي..
أيتها الحبيبة الغريبة..
الحبيبة الكئيبة
الحبيبة، الجمال والمدمامة

هذا مسار نجمهم..
يركض في الزاوية الكبرى..
قليلاً
ثم ينهار رماداً
نجمعهم علامة..
شهادة الميلاد والموت..
وشارة القيامة!

العودة إلى أراض الغربة

تحلم بالنار القناديل
وتحلم المعاول
برجفة الحقل، وشهقة السنابل
وتحلم الصحراء ذات القمر المشنوق
بالقوافل
والجبل المهجور بالزلازل

وتحلم البحارة الغرقى..
بأضواء المنارات..
وأعشاب السواحل
وتحلم المقاصل
بالموت، والقناع..
مصلوباً على الأبواب والمداخل
وتحلم بالبنادق

بالدفء في أيدي الجنود..
والدجى الصخري بالحرائق
وتحلم الحبال والمشانق
والأفق القديم.. والدفوف..

والبيارق..
بأوجه الخطاة
والمهرجين.. والطغاة
والملوثين.. الخونة
ذوي الشفاه النتنة
مطأطئين
معلقين
في سقوف الأزمنة
أحلم.. ثم أنفض الدهشة
عن عيني..
استغرق في شعبي
من يوقظني؟
من الذي يدق سجني؟
من يهزني؟
يخلع بوابة تاريخي..

يضيئني

يخلقني

ينثرني حبة رمل في جبال وطني

يكتبني حرفاً صغيراً

في نضال وطني!

أحلم أنني لقيته

وأننا تعانقنا معاً

وأنني غفوت في قصر

النعاس الخشن

هنيهة على ذراع وطني

وأنني..

وأنني..

يا أيا العائد من غربته

يا وطني!

١٩٦٩/٦/١

أغنية جوفاء!

نحن العرب..
أجدادنا كانوا ملوك العالم القديم
حيث الرؤى والشعر يسبحان
في مجدهما الأليم
حيث الخطى المستكبرات..
لم تزل تبتعث الرعشة
في أقبية الماضي العظيم

نحن العرب..
عنترة العبسي فوق صهوة الفرس
يصرخ في الشمس فيعلو الاصفرار وجهها
وترجف الجبال رهبة، وتجمد السحب
لأنه قهقه أو غضب
لأنه ثرثر أو خطب

لأنه النار التي
تفرخ ذرات الرماد والحطب!
نحن العرب
المعجزات والنبيون وأرباب البيان
منا..
ولولانا لهانت عبقرية الزمان
تاريخنا العملاق ما أروعه وأعجبه
ووحدنا في الحلبة
وإن أردتم فاسألوا
الأحساب.. والألقاب..
والأضرحة المذهبة!

٥-٣-١٩٧

العودة إلى أرض الغربة

تحلم بالنار القناديل
وتحلم المعاول
بجرفة الحقل، وشهقة السنابل
وتحلم الصحراء ذات القعر المشنوق
بالقوافل
والجبل المهجور بالزلازل
وتحلم البحارة الغرقى..
بأضواء المنارات..
وأعشاب السواحل
وتحلم المقاصل
بالموت، والقناع..
مصلوباً على الأبواب والمداخل
وتحلم البنادق

بالدفء في أيدي الجنود..
والدجى الصخري بالحرائق
وتحلم الحبال والمشانق
والأفق القديم.. والدفوف..
والبيارق..
بأوجه الخطاه
والمهرجين.. والطغاة

والملوثين.. الخونة
ذوي الشفاه النتنية
مطأطئين
معلقين
في سقوف الأزمنة
أحلم.. ثم أنفض الدهشة
عن عيني..
استغرق في شعبي
من يوقظني؟

من الذي يدق سجني؟
من يهزني؟

يخلع بوابة تاريخي..

يضيئني

يخلقني

ينثرني حبة رمل في جبال وطني

يكتبني حرفاً صغيراً

في نضال وطني

أحلم أنني لقيته

وأننا تعانقنا معاً

وإنني غفوت في قصر

النعاس الخشن

هنيهة على ذراع وطني

وإنني..

وإنني..

يا أيها العائد من غربته

يا وطني!

١٩٦٩/٦/١

أغنية موت قصيرة

وتهادت الغربة
عرجاء تبكيني وتضحكني
وتريق ألواني.. وتغزلني
ليلاً خريفياً بلا لون
ليلاً عجوزاً طاعن السن
يعود بخيمته ويحملني

ورأيت بومات وأغربة
تصطف عبر مداخل المدن
عمياء ترمقني
حيناً وتنقرني
وأنا أطل عليك..
غائرة القدمين والعينين في بدني
كالجزع كالحربة

في غابتي المنسية الرطبة
وصرخت حين تاوت الغربة
بي.. في ضفائر شعرها الوثني
يا أول الدنيا وآخرها
لولا هواك لمت في وطني!

أو أنت تلك؟ كأن زنبقة
حجرية نبتت على دربي
وحملتها يوماً لأزرعها
ما بين مجرى الماء والعشب
فتجعدت، وحنوت ثانية

فزرعتها في مخدعي الرطب
لكنها انفرطت..
ولو صبرت..
لزرعتها كالشمس في قلبي
أو أنت تلك المرأة الذئبة
مرحى إذن بالموت في الغربة

بيروت – ١٩٦٨

يوميات حاج إلى بيت الله الحرام

-١-

قوافل يا سيدي قلوبنا إليك
تحج كل عام
هياكل مثقلة بالوجد والهيام
تسجد عند عتبات البيت والمقام
تقرئك السلام
يا سيدي
عليك أفضل السلام

-٢-

على الرفات النبوي كل ذرة عمود من ضياء منتصب من قبة الضريح حتى قبلة السماء

على المهابة التي
تخفض دون قدرك الجباه
راسمة على مدار الأفق أفقاً عالياً
من الأكف والشفاه
مموج باسم الله:

– الحمد لك
والشكر لك
والمجد لك
والملك لك
يا واهب النعمة يا مليك كل من ملك
لبيك لا شريك لك
لبيك لا شريك لك

-٣-

يا سيدي عليك أفضل السلام
من أمة مضاعة
خاسرة البضاعة
تقذفها حضارة الخراب والظلام
إليك كل عام

لعلها أن تجد الشفاعة
لشمسها العمياء في الزحام

-٤-

يا سيدي
منذ ردمنا البحر بالسدود
وانتصبت ما بيننا وبينك الحدود
متنا..
وداست فوقنا ماشية اليهود

-٥-

يا سيدي
تعلم إن كان لنا مجد وضيعناه
بنيته أنت، وهدمناه
واليوم ها نحن!
أجل يا سيدي
نرفل في سقطتنا العظيمة
كأننا شواهد قديمة
تعيش عمرا لكي

تؤرخ الهزيمة!

-٦-

لا جمر في عظامنا ولا رماد
لا ثلج لا سواد
لا الكفر كله ولا العبادة
الضعف والذلة عادة
يا سيدي
علمتنا الحب
فعلمنا تمرد الإرادة

-٧-

أبك لنا
وادع لنا
فالعصر في داخلنا جدار
إن لم نهدمه
فلن يغسلنا النهار

بيروت – ١٩٦٨

قوس الليل.. قوس النهار

شبيهة في صمتها الأخضر
بالخيل التي تصهل في ذاكرة الماضي
وبالنجم الذي يحرس أبواب الشتاء
حالمة كأنها ترفل في طقس من البهاء
ناعمة كطفلة عارية مكسوة بالماء

هل تعرفين ثمنا للحب يا سيدتي
قالت: وهل غير اكتماله بالحب
والإيمان؟
قالت: عبق في الروح
– والرغبة؟ والقسوة؟ والحنين؟
والغسق الليلي؟ والتآكل الحزين
قالت: وماذا بعد؟
– في أيامنا، وأنت في أيامنا

يسقط قوس الليل، معكوساً على قوس النهار
ونحن.. نحن البشر الفانين في هذا المدار
نجسء مغلولي اليدين

نذهب مغلولي اليدين
وقد نموت مطبقي الشفاه
عاجزين..
مثلما ترين!
مثلما ترين!

الرباط ١٩٩٣

رؤيا

خارجاً من دمائك.. تبحث عن وطن فيك..
مستغرق في الدموع
وطن ربما ضعت خوفاً عليه
وأمعنت في التيه كي لا يضع
أهو تلك الطقوس؟
التي ألبستك طحالبها في عصور الصفيح!

أهو تلك المدائن؟
تعشق زوارها، ثم تصلبهم في خشوع
أهو تلك الشموس؟
التي هجعت فيك
حالمة بمجيء الربيع
أو أنت؟
وقد أبصرتك العيون..

وأبصرتها في ضباب الشموع؟
خارجاً من غيابك..
لا قمر في الغياب..
ولا مطر في الحضور
مثلما أنت في حفلة العرس والموت
لا شيء إلا انتظار مرير
وانحناء حزين على حافة الشعر

في ليل هذا الشتاء الكبير
ترقب الأفق المتداخل
في أفق لم يزال عابراً في الأثير
ربما لم تكن..
ربما كنت في نحلة الماء

أو يرقات الجذور
ربما كان أجمل..
لو أطبقت راحتاك على باقية من زهور!

في شتاء قارس..

قاس غناؤك، مغروق العيون، وصاخب
كنجمة البحر، مسكونة بموج الطحالب
كمثل ما اشتعلت في الصخور شمس المغارب
يا عاصفاً حيث تخطو، لشد ما أنت غاضب
تكاد تشهق رعباً، وأنت آت وذاهب

في مدن من نحاس وأمة من عجائب
تأنقت في الخطايا، وأزينت في الخرائب
موجوعة ليس تدري السياط من أي جانب
تنام فوق سرير الذهول، والحلم غائب
قاس شتاؤك.. أرض رملية وعواصف
وغصن نار وحيد، كأنه الموت واقف
يصغي وقد قوسته رؤى ملوك الطوائف
الخارجين من الذكريات، حمر المعاطف

كانوا هم الكون قدراً، ونعمة ومواقف
ثم استحالوا توابيت في بطون المتاحف
فكيف داس الذي داس قبره، غير راجف
وكيف خان الذي خان أرضه، وهو عارف
وكيف مست أيادي الزناة، طهر المصاحف
قاس وصوتك والبرق في عيون النوارس

والشاخصون صفوف من الدمى والعرائس
بلى، وكان شتاء، مر بطيء وقارس
وقلت يا زمن النفط والرجال العوانس
إن الذي رقصوا حوله، وهزوا القلانس
لا ليس عرساً، وإن كان، فهو عرس الدسائس

قاس.. وبغداد أقسى، بغداد مداها
تمتد فهي المجرات، أعيناً وجباها
وتنتهي حيث يمشي التاريخ إثر خطاها
فاكتب عن النار والثلج شمسها وضحاها
اكتب ولا مس رفات العظام من شهداها
أنت المغني الذي راهموا وراها
وشاهد العصر، عريان في حريق دماها

بغداد ١٩٩٤

موسيقى فوضى الأشياء

يروق للعابد أن يرى انسكاب وجهه
في شمعته البكاء
يروق للشاعر أن يعلق النجوم في قطيفة السماء
يروق للمرأة أن تنشر نصف شعرها في الشمس

والنصف على أريكة المساء
يروق للقطة أن تمارس التثاؤب الجميل

والتحديق في مدفأة الشتاء
يروق للصوفي أن يخلع تاج العقل
أو يلبسه في الحلم، عندما يشاء

يروق للطاغية الإبحار في ذاكرة الموتي من الأحياء
يروق للأعمى اكتشاف عبث الألوان
في تماثل الغناء

يروق للجاهل أن يغرس وردتين في قميصه:

الغرور والغباء!

يروق للقاتل أن ينصت مشدوها إلى قيثار الدماء

يروق لي، أن أسأل الطفل القديم:

– هل رأى طفلاً من النور يذوب في الهواء!

تقاسيم على المتدارك

نادراً ما تفوح زهور الخطايا
نادراً ما تبوح الشفاء بأسرارها المغلقة
نادراً ما تقلب أشكالها
صور الموت في الكائنات

نادراً ما تخبئ قيثارة صوتها في الرمال
نادراً ما تكون القناديل أعمدة للغياب
نادراً ما تموت العصافير
فوق رفوف الغيوم
نادراً ما تسيل الحروف

نادراً ما تشع الكآبة في ضحكات الوجوه
نادراً ما تنام الإرادة في رحم الكبرياء

بانتظار اشتعال السماء!

صورة الماضي

وتنكريننني
كأن الزمن الثلجي لم يلبس رداء البرق
والأرض التي عانقت التاريخ لا تزال
عجينة منسية في الكون
والكلمة لم تخضر في أودية الخيال
والصمت في ارتعاشة الجمال

كأننا – يا حلم الصحو والاكتمال –
جئنا على صورة ماضينا
نبكيه أحياناً ويبكينا
وننتهي فوق أمانينا

أغصان الليل عليك

مطر ذهبي يهبط أبراجاً وقباباً
في غابات الشمس..
وخيل جامحة تتزاحم تحت صهيل الريح
وبعض من أوراقك في شجر الأيام
وحائط صلبان متعانقة، وشموع ضريح

فأذب منفى الدم والأسطورة...
لا تغمض عينيك على عينيك سدى
واجعل من حلمك حين ينام العالم
مركبة من أنغام وعطور

وانزع قلبك مما ينزع قلبك..
مثل نبي لحظة أشعله التاريخ
تجسد في رؤيا البشرية جوهرة زرقاء

ودائرة من نور!
وتشكل في الأسماء، وفي الأصوات، وفي الألوان الأسود يذبل محموماً في الأبيض

(والياقوت الأحمر، يغرق في الياقوت الأصفر
والضدان المضطجعان
على حجر الأبدية
يلتحمان وينفصلان
وينحدران، ويرتطمان
ويستويان!)
في الداخل...

خلف البوابات الصماء المرصودة
حول نواميس العالم
تتأنق مأساة العالم
وتغيم سماء الله الأعظم خلف البوابات

وتموت الشمس، وتولد أطفال الظلمات
ولهذا سوف تظل تعانق لعنتها
وتقاتل أنفسها الأموات...
لو أدرك إنسان الغابات الراكض

عبر حدائقه الوحشية فوق خيول الوقت
معنى الزمن الآتي
لتهدم مبغوتاً..
ولأبصر خوذته الملكية غارقة في نهر الموت

خانت بعض الكلمات وبعض الإيماءات
وها هي ذي تتمايل راعشة
أغصان الليل عليك
وأنت بلا درب.. وبلا صاحب

يا ويح جنونك....
أين تعلق صورة شعرك
في زمن المجد الكاذب!

القاهرة ١٩٩٦

ليس في الياسمينة غير البكاء

الملائكة تتعانق خاشعة في مراياي..
ذائبة في شموع التراتيل..
مائدة من بنفسج روحي
ولي أفق من طيور اللقاليق

ينصب أعراسه البربرية حولي
إذا دخل الليل في الليل..

يلبسني في الدجى قمرا ميتا
ويغادرني غابة في نعاس الظهرية

أعراسي الغابة الاستوائية..
القمر الميت..
الكائنات التي تتناسل أشباحها
تحت نافذتي..

كلما اضطربت في الكهوف العميقة
أمواج منتصف الليل..؟

مونولوج ٢

ها قد أتى الوقت..
يا موحش الذات في الذات..
ها قد أتى الوقت..
وحدك أنت، وأشجارك البيض..

مثل الشوارع موحشة وحدها..
في شتاء المعاطف والقبعات
النبوات تصدأ في بقع الماء

والصور الجاهلية، تنفخها الريح خلفك
والزمن الرث منجذب بين قطبين
خذ باليقين...
فإنك أنت الحجاب الذي حجب السر عنك

وتلك الشموس التي اشتعلت
في القباب الملونة
اشتعلت بك منك!

مونولوج ٣

مثل أرملة العرس..
أسدلت النحلة الذهبية أهدابها
وهوت مطراً ناعماً
في بكاء الغصون
ليس في الياسمينة غير البكاء

وفي بهو سيدة القلب نافورة
ومغن حزين
ترى كيف تعبق زنبقتي
في بساتين هذا المساء الخريفي!
والكلمات التي ارتكبت خشية الله

كيف تلامس قربانها؟
كان عشقي مثلي يضم جناحيه إثر الزيارة
لم اكتمل في عبادتها..

ولهذا تلاشيت دون القبول
– انكسر.. فانكسرت..
– احترق.. تحترق أو تضيء..
جاءني الصوت..

– يكتمل الطقس، حين تصبر المحبة لؤلؤة
في فم النار
قلت: وبرهان عشقي؟
قال: احتراقك
قلت: وعشقي؟

قال، وألقي بدهشته فوق وجهي؟
– احتراقك في الشيء .. أدنى من الشيء
والعشق ألا تحول..

مونولوج ٤

نهر فاغتسل أيها المغتسل
آية العاشق الفرد أن يمتثل
ولقد يصل الماء أو لا يصل
والمدى نجمة في المدى ترتحل
فاسقهم منك في روحهم تشتعل
وامش تحت حوائطهم تكتمل

زهر الكلمات

لم أجد غير نافذة في سمائك
مبتلة بدموعي
فألصقت عيني فوق الزجاج
لعلى أراك
لعلك تبصرني، وأنا هائم

مثل سرب من الطير، منهمك في مداك
لماذا تلوح لي من بعيد
وتتركني مغلق الشفتين
وتدخل في غابة من سناك

لماذا تغيب؟
كأنك لم تدر أني زرعتك في جسدي
فازدهرت نقوشاً

وأني نثرتك في أفقي
فاشتعلت شموعا
وأني رسمتك أودية، ومدائن مسحورة
وتشكلت مثلك في زرقة الكائنات
وما زلت أولد في زهر الكلمات!

ملك أو كتابة

بيننا خائن يا رفيق
أنا أو أنت..
فلنقترع قبل بدء الطريق

ملك أو كتابة!
تصدأ الصور المعدنية مثقوبة في مضاجعها

كل وجه قبيلته فوقه
كل وشم على معصمين احتفال
ذروة النقص في ذروة الاكتمال
نبي ولا ملك
أنت عصف المحاريث وحدك

أية فاجعة أن تكون المغني وحدك
في ذروة النقص أو ذروة الاكتمال

ويد الله تسكب إبريقها
عطشا في التضاريس
والأرض طاولة اتخذت شكلها:

ملك أو كتابة
ليس ثمة ما يجعل الموت في الفجر
أجمل منه إذا انتصف الليل
موتك كان الولادة...
هل طيبتك الزيوت العتيقة

حتى تفاوحت في حمرة القيظ!
لا ليس ثمة رائحة في زهور القرنفل
ثمة رائحة في نقوش الخلاخيل
والزبد الأصفر المتخثر تحت العباءات
والقبعات المليئة بالدم والنفط..

في أي برج ولدت؟
إذن برجك الرمل
كوكب عصر التهافت في الأفق العربي السعيد
سألوني..
وها أنا أشهد

إن الزمان عجيب

وأعجبه أن هذه الجموع

تغني وترقص في قفص من حديد!

وأشهد

أن التراب الذي عجنته الهزيمة

كان جميلاً..

وأضحى قبيحاً

وأقبح من لونه في العيون

تألق تاج المهانة

فوق جباه الرجال العبيد

الجوارح تنهش لحم السموات جائعة

وغزالة طاغور في العشب تحلم

مرت بها منذ حين سحابة

لم تقل أنت يا من رأى

ملك أو كتابة

ثم يحدث ما يشبه الحلم

تهبط بضع شموس من الأفق

ذات عيون رصاصية، وأصابع باردة

تتقوس فوق بنادقها..
وكآلهة في الأساطير...
تمشي الشموس مجنحة
وببطء ثقيل ترش الرصاصات

عرش الذي قتل الأرض
إنه يتبوأ كرسيه الآن
ريش الفراعنة الأولين
على منكبيه.. وفي ورحه

جسد بالغ الموت
يحسب أن لن يموت
وببطء ثقيل ترش الرصاصات
عرش الذي قتل الأرض
ثم تغوص، وتنكسر الخطوات عليه

وتخلع مصر براقعها..
كان في دمها، وهي حاضت به..
نسلته غريبا
وأنسلها لعنة
أحضرته من الظلمات... وغاب

كان حجم جريمته
حجم يوم الحساب!
الذي قتل الأرض
نفض نعليه فوق رقاب النبيين

واختار رقدته في الكنيس اليهودي
لكنه لم يكن وحدن
كان أنت الخيانة أو أنا
والظل أجنحة الشجر المتكسر

معذرة يا رفيق
إن عصراً تحوم عليه الإدانة
فلنقترع قبل بدء الطريق!
حائط الغيم يصعد معترضا حائط الغيم

والقوس يبرق في الهضبات البعيدة
والرعد ملء الأكف التي أمسكت بالمداميك
ها قد مشى الرمل

فوق الحقول التي زرعتها يداك
هو الرمل يمشي هناك!
أما العمر تطفو عليه شخوص الكوابيس

"عيد السادة..

ذكرى اغتصاب فلسطين"

عيد فلسطين

ذكرى المعاهدة البربرية

عيد الصعود

عيد الهبوط

ويوم الصيام

ويوم الضحية

ومت الرسول

وقام المسيح

وأعشبت العتبات السنية

وقال المطارنة الطيبون

وأفتي ابن مالك والشافعية

وهذا انقلاب لأجل القضية

وآخر أيضاً، لنفس القضية

وكأس نبيذ لمجد يهوذا

وكأسان في صحة المجد ليه

وعام على إثره ألف عام

وخارطة الدول العربية
ممرغة في بقايا حطام
قوائمه النظم العنترية
فهاتيك رأيتها جاهلية

وتلك عبائتها هاشمية
وأخرى تميل إلى الماركسية
ورابعة تعشق الناصرية
وتنطق باللغة الفستقية
وتسقط كل رقاع البيادق

منهكة في حروب الكلام
وطار الحمام
وحط الحمام
وفي البال فسقية من رخام
ومحظية مثل بدر التمام

وعين جلالته لا تنام
ويا قدس مني عليك السلام
الذي قتل الأرض
ما زال يمسح رؤيا الجموع

ويهطل في مطر الكلمات
يزهو أفيونه في الطقوس
وفي كتب الموت والصلوات
وأرغفة الخبز والملصقات

وطقطوقة الباشوات القدامى
ومعزوفة الباشوات الطغاة
وباليل.. يا عين
يا عين.. يا ليل
والليل ينفخ أرغوله في شوارع مكة

ومكة جوهرة الأنبياء
تعلق أوثانها فوق سور البكاء
وتحصد في جوعها النفط والفقراء!
في أشد الفصول خريفية
تتفتق أغشية اليرقات الشفيفة

عن أمم طفلة
سوف تحمل مائدة الله فوق سواعدها
وتثبت أعمدة الكون..
من يحبس الموج كي لا يقلب كفيه

في لؤلؤ البحر!!
من يجذب النار
ملوية من ضفائرها!
حجر القبر يرقت ساعتكم

اختبئوا فيه..
أو خبئوا جيف العصر
قط لم تعرف النصر
إني أدوس نياشينكم
إن هذي النياشين
فوق صدور مجوفة

إني أدين صحائفكم
طائر الكلمات الجريحة
يفطر في غسق الفجر
أسألكم يا ملوك الطوائف

هل أمة في حوانيتكم أم بقايا شعوب
إن أزمنة عانقتها الحضارة
تطمسها ريح أيامكم
إن من يحصد الضوء في الشمس

يحصد ظلمتها في الغروب

خشيتي من رماد هزائمكم

خشيتي من جحيم انتصاراتكم

فالغرابيل مسقوفة أبدا بالثقوب

وليكن قدر الحق

إن انهيار ممالككم وحده هو شرط انتصار النبي الفدائي

شجر الأرز يأكل أطفاله فجأة

كانت الشمس تنصب في شجر الأرز

بستانها

وتروج نسيج منعطفات القرى بمنغازها

أنت من أدخل الشمس في ظله

وتسرب عريان في الظل

آخر ما لم تقل أن سربا من الطير يتعب

لكن أعناقه لا تسد السماء على الطير

واخترت برق الألوهية

اخترت ألا تكون الغيوم التي اتكأت في خيال الحديقة

أو سلة الياسمين

التي خبأتها صغار العصافير

في أرخبيل الغصون

مونولوج صوفي

-١-

كن شريكي أهبك جواهر قلبي
أو كن قتيلي
أو في شفتيك دمي أو رحيلي

-٢-

وكان اسمه عابد العابدين
وكان اسمك القادر المقتدر

-٣-

أنت تعرف أني كثير
وأنك وحدك

وأعرف أنك قلبي
وأني بعدك

-٤-

الرماد رمادي، يا نهر دجلة
والرأس راسي، يا سور بغداد
صرت وحدي في الناس مليون نخلة
كلما قطعوني أزداد

-٥-

كان كأس دمي طافحا
فاستحيت .. وأفرغته
مثل من سبقوني
أتراني جاوزت قدري ..

لأني قد تعمدت
في الهوى بجنوني!
منذ أن مسني.. ومضى
تاركاً كنزه في فمي

خلصت شهوتي
فهي موج يقيء إليه
وأجنحة من صبابه
لست أعرفني
لم تقل لي من أنت؟

من أنا يا سيدي؟
من هو الآخر المتحجر في شفتي؟

ملك أو كتابة
شفق أو عقيق!
إن من خاننا لم يزل بيننا يا رفيق
والإدانة مائلة في التقاطع
فلنقترع قبل بدء الطريق!

الفهرس

٥ أحلى قصائد الفيتوري .....
٢٣ سقوط دبشليم .....
٤١ رسالة إلى الخرطوم .....
٤٥ حصاد شعب .....
٤٧ غابة موت .....
٤٩ الحصاد الأفريقي .....
٥١ الندم .....
٥٣ في ضوء الفجر .....
٥٥ تحت الأمطار .....
٥٧ قطرة ضوء .....
٥٩ هواها .....
٦١ إلى امرأة عاشقة .....
٦٧ لقاء .....
٧١ إلى وجه أبيض .....
٧٥ مات غداً .....
٨١ الطوفان الأسود .....
٨٩ الأفعى .....
٩٣ حدث في أرض .....
٩٧ عن الشعر والكلمات الميتة! .....
١٠٥ مقتل السلطان تاج الدين .....
١١٧ ياقوت العرش .....

١٢١ نقش على شفتين .....
١٢٥ معزوفة لدرويش متجول .....
١٢٧ الوصايا القديمة .....
١٣١ رحلة.. في عيون بلادي .....
١٣٥ أقوال شاهد إثبات .....
١٤١ ابتسمي حتى تمر الخيل .....
١٤٧ العودة إلى أراض الغربة .....
١٥١ أغنية جوفاء! .....
١٥٣ العودة إلى أرض الغربة .....
١٥٧ أغنية موت قصيرة .....
١٥٩ يوميات حاج إلى بيت الله الحرام .....
١٦٣ قوس الليل.. قوس النهار .....
١٦٥ رؤيا .....
١٦٧ في شتاء قارس .....
١٦٩ موسيقى فوضى الأشياء .....
١٧١ تقاسيم على المتدارك .....
١٧٣ صورة الماضي .....
١٧٥ أغصان الليل عليك .....
١٧٩ ليس في الياسمينة غير البكاء .....
١٨٣ زهر الكلمات .....
١٨٥ ملك أو كتابة .....
١٩٥ مونولوج صوفي .....